SAMIRA AL- KHARUSI

سميرة الخروصي

غيومٌ يَقِظَة



قصائد وقصص

سميرة الخروصي

غيـــومٌ يقِـظَـة

قصائد وقصص

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي

موسى عمر

الناشر

وزارة التراث والثقافة

ص . ب : ٦٦٨ ، رمز بريدي : ١١٣

هاتف : ٢٤٦٤١٣٠٠ (٠٠٩٦٨)

فاكس : ٢٤٦٤١٣٣١ (٠٠٩٦٨)

سلطنة عُمان

قصـــائد

الطفل ذاك ...

يطوفُ الصباحَ البعيدَ

بساقين عاريتينِ

تنفسهُ الرملُ و الموج ، أحجية من رمادٌ

ليسقط سهواً

على ما تبقى من الدم في وردةٍ من سُهادٌ

إذا ما تصَّفحَ جَبهتهُ في المياهِ

تطيرُ ألوف اليماماتِ ، ملء السماءِ

وسربٌ من البجعاتِ

و ما حمّلته المصابيحُ ذات هزيعٍ أخيرٍ

على جَفن راحلٌ !

حزيناً ..

كنخلة والدهِ في النهارِ

كئيباً كوجهي ..

إذا ما طواني المساء

مخلفة قريتي وحدها ..

لارتعاش الرياحِ

وخصلة قشٍ مهاجرة

في أنينِ السواقي !

❖❖❖❖

إذن كان طفلاً بعينين غائمتينِ

كصمت البحارِ

رمتهُ الفصول لوهم البيادرِ

للزرقتينِ بأقصى المدى !

يمنحُ الماء للنخلِ فجراً

يمشط ساقيه في الزبدِ المتآكل

ساعات حزنهْ

هناك تفرِّغُ كل الغيوم حقائبها ..

كلما أدمع الصبحُ عند المخاضِ

فهامَ رصاصٌ

وثمّة زيتونة ..

تستحمُ على منبعٍ

في طريق الرجوعْ !

متى يعشب الطين بالذكريات ؟

سَـلامٌ لتلك القبابِ التي

أتعبتها العصورُ

يُصَّلي لها الماءُ حينَ

تواري شموسَ الأصيلْ

سلامٌ لها بلدتي إذ تنامُ

مجلجلة بأساطيرها و النخيلْ

سلامٌ لها ..

لطقوسِ الأماسي

لفجرٍ تصاحبهُ في عناقٍ طويلْ

فللتو

تفرشُ شمس الظهيرة أثوابها

في عروقِ الرمالِ

تسرِّحهُ

جَدلةً

جَدلةً .. مثلما المستحيلْ

تفتشُ عن صبحها المتعطرِ

بالطيبِ و الهيلِ و الزعفرانِ

و تنثره .. سدرةً

سدرةً

في أقاصي الهزيعْ

وتلقي حمائم أسفارها العابرات مساءً

على سطرها المخمليِّ الظليلْ

وإذ يكبرُ الغيم صيفاً

نطرِّزُ في بُردة الليل أوهامنا

أنجماً للربيعْ !

تحط عصافيرُ حنائها

على ورقٍ يابسٍ في السُطورِ

كأنيَ أرنو إلى طفلةٍ

حيث تلهو صغار الطيورِ

وصفصافة باتساعِ المدى .. سكبت ظلها

تُفضِّي حقائبها بلدتي

وتقرأُ في التوقِ معراج رحلتها

قبَّلتني

لأعبُرَ حُزنَ الحقابِ

ولكنني ..

مثل تشرين عُدتُ كفاتحةٍ

كي أصلي لها .

لو تعود الحمائم للجسر !

وغداً سيرتجفُ الندى الموعودُ في عينيكِ

تتحدُ السنابلُ ،

تورقُ الغابات أشرعةً

تلملمُ ما روى الصفصافُ عنكِ

و ما وشى الورد المُكابرُ عن تفاصيلِ المكانْ

هل قيل عادتْ ؟

و العصافير التي تركت على الأغصانِ ريشاً

و استراحت خصلة بيضاءَ في فجرِ الأذانْ

عبرت على فلقِ المدى

قوسانِ من قمرٍ و ظلٍ

سرب سَروٍ خائف

يكفي ليوقظ خلفهُ

عتبَ النخيلْ !

عتباً شفيفاً

يشبهُ الشطآنَ في أحزانها

وقت انعتاق الماء في فوضى الأصيلْ

هل من سواكِ

سيمنحُ القمحَ اخضراراً

بعد ميلاد اليباس !؟

ومن سواكِ

سيمنحُ الغيم المكبل بالقصائدِ « غنوة »

من دمع أطفال الشتاءْ ؟

❖❖❖❖

و لكم نهابُ عُبورَ ذاكرة المكان

هنا تضيعُ القاطرات

وينبتُ الحناء وحشتهُ أنيناً

في ظلالِ الفاتحينَ

بقرب أول نخلةٍ ،

وبجَبهةٍ سمراءَ تشرقُ بالوضوءِ

وهم هنالك ..

يدعونَ

ويحتسونْ ....

ويرشقون قداسة الأنهار ملحاً

في شُجيرات الجراحْ

ويخنقون الصُبحَ في قمر المآذن

كلما مرَّ الحمامْ

كوني إذن في آخر الصلواتِ

زهراً للدعاءِ

فباسم هذا النزف نقرأُ

كبركِ المكتوب في وجع الثرى

وعلى صمود السيسبانَ

ونرى طيور الضوء أبهى

من صبايا (الآسِ) في قصبِ المساءَ

فكيف يتسعُ المدى

وعلى يدٍ حمراء تشهرُ إصبعاً

خشبا يعربدُ في الصليبِ

(هنا سترقدُ كربلاءَ) ! .

ثمةَ غَيمٌ يخون

رَحلَ الشتاءُ وغابَ قبلَ أوانهِ ... تركَ الضِفافَ وخلفَ الأمطارا

عبر ارتجافاً حولَ قفرِ نوافذي ... نجماً هزيلاً..إذ خبا وتوارى

أينَ الغمائمُ ؟ قد صَنعتُ سفائناً ... منها ، أقمتُ مدائناً وديارا

منها اهتديتُ إلى خبايا نجمةٍ ... قد بادلتني خاتماً وسوارا

كم أرّقت جَفنَّي كِبرُ مواسمي ... كمْ خانني هذا الربيعُ مرارا

أسدلتُ هُدبَ البوحِ في همساته ... وكتبتُ فيه مواطناً. أسفارا

وعشيةً أفلت حمائمُ غُربتي ... فبأي صيفٍ يا تُراه تُوارى ؟

❖❖❖❖

أنا و البراءةُ طِفلتانِ .. وقد نما ... فينا الخريفُ ..وأرَّقَ الأطيارا

أونحنُ حقاً قد كبرنا؟.. يالنا ... الله كم كنا ندىً وصِغارا

يا للصغارِ يُسافرونَ مواسماً ... ما همهمُ.. كلُّ الفصولِ عذارى

ترجّلْ

مطرٌ
لأبتكر المواسم هكذا
بين التجلي و الحضور
وأنت تأتي من بساتين المساء
مباركاً تعب المسافةِ
حاملاً ما شاءت الأقدار فينا
من حنينٍ
كم نما فينا الغياب ؟
وأين شاطئكَ الذي يمتد حدَّ الانطفاءِ
ولا يجفُّ على سُبات الغيمِ
يا هذا الوحيدُ ..
نسيتَ نورسة هنالك في البعيدِ
ولم تُعد إياك طفلا تائهاً
في زُرقةٍ تمضي على مضضٍ
ونحوَ القاع تحمل ما يشاءُ الماء
من غفواتهِ
يا راحلاً بين المدائن
تاركا روحاً تعانقُ نجمةً
لا زعفرانَ

و لا صباح قبيل صحو الوردِ

لا عصفور غيركَ في المدى

❖❖❖❖

أحتاجُ

أن أغفو قليلاً..

أنتشي ما وزعتهُ النرجسات على خطانا

كل نجم كان يبكي قصةً

عن وردتين وشرفةٍ

عن بعض ما ترك القصيد على فمي

من هدهداتٍ

أيقظت طفل الندى

كي يستفيق على تساؤل شمعتين

وبيلسانك بانتظار القطف قبل رياحهِ

وهنا رأيتك في جدائل غيمةٍ

كنتَ الحقيقة و السراب

وكل ما تركَ الربيع على السحابِ

فأنت مني

نصفُ زنبقةٍ تتوق إلى التوحدِ

كيف تجرحنا الأماكن هكذا ؟؟

قل لي بأنك قادمٌ

كم عاتبوا شجر التذكرِ

كم نما فينا الغياب

ونام في وجع الهزيع يمامنا ؟

الآن أنذر جذلة للريحِ

خانتني النبوءة مرةً

ألقت بسوسنها علي

فعدُ إليَّ كفارس لأقول في عتبٍ :

ترجلْ !!!

حفروك في لغة المواسم

وتجئُ من يقظاتها في الغيبِ

تهوي نقمة

أو نجمةً عذراءَ

يا .... يا أنتَ

يا وجهاً لظلِ النَبعِ

طفلَ العُشبِ و الميلادْ

هل هم كفّنوك ليغسلوا أوزارَهُم

بالعطرِ و الحناءِ ؟

هل اصطفوكَ على رواهشِ غَيمه

صيفاً يُهادنه اليباسُ محاصراً

يا أنت يا نبعاً لهذا النزفِ

في الوهج الأخيرِ من الصلاةِ

حفروك في لُغَةَ المواسمِ

ذاهباً في زرقة الماء المُباحِ كفرقدٍ

يا شاهقاً

أكمل بزوغ المعجزاتِ

فلتعتريني الآن كالوحي

ملاكاً عابقاً

حتى تزُاحِمكَ الخمائلُ

موغلاً بين سجوديَ و البُكاءْ

قـربَـانُ الخَـطِيئة

سبعٌ عِجافٌ .. ثمَّ سَبعٌ .. هَكذا
طَالَ الجفافُ ولم نَجدْ تأويلا

(هابيلُ) قربانُ الخطايا أصبَحتْ
للقاتلينَ دمــــاؤُهُ إنـجيــلا

رشقوهُ بالباروِد .. كيف تبرءوا ؟
ورموهُ مُلقى في العــراءِ قتيـلا

الله يا دمه الــزكي .. تــوضئي
بهِ يا تــلالُ و أوقـدي القنديلا

كي يستضئَ العابرونَ وكي نرى
أعناقنـــا إذ تشــرئبُّ قليلا

قـد كانَ يحلـم بالطيورِ يجئنَـهُ
وكغـــابةٍ يغمُـرنَهُ تـرتـيلا

قد كانَ أشبه ما يكونُ بجـــدولٍ
فاضتْ جوانبُ ضفتيهِ هديـلا

فلطـالما صلى بطهــر يمــامــةٍ
و لطالماغَرسَ الدُجى تنـزيلا

كسروا نجاد الريح فوقَ رُفـاتـه
نَمْ يا جــواد فقد تعبتَ صهيلا

واستـجوبوا جثمــانه عن تهمـةٍ
مَاذا عساهُمْ ينزعُونَ دليـلا ؟

والله ما وجدوا سِوى أرضٍ نمتْ
في مُقلتيـه وأرقـتهُ طـــويــلا

الآن ظلـــوا يكفِرونَ رجـوعـه
حتـى أفــــاقَ مآذناً ونخيلا

لـم يشغل الدنيــا ولـيِّ مِثلــهُ
يهـوي فُراتياً .. وينـزف نيلا

ما الذي يورق الآن ؟

سيفتح نيسانُ لي قلب ريحانةٍ

كي تعجَّ سلالكَ بالياسمينِ

أهذا الذي يورق الآن في راحتيكَ حمامٌ ؟

أهذا البياض الذي خلف زيتونهم

قمرٌ في تمام التصوفِ ؟!

تظل العشياتُ مشبعةً بالتبتلِ

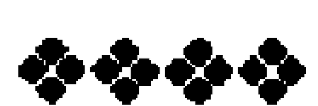
بالهجرات إلى موطن للحنينْ

حفاةً ..

أتوا يغزلون صغار العناقيد بالحزنِ

لو قمرٌ مرَّ – سهواً – عليهمْ

ومد أمام زنابقهمْ سُلماً للغيومْ



يفرُّ الدخانُ من الفجرِ

يحط على شرفة الجرُح كالقبراتِ

ولكنَّ أماً تظل هناكَ

تحيكُ على شالها ألفَ سوسنةٍ

كلما ذكرتها القطاراتُ

بالليل يهدلُ (مرينا بيكم حمد ....)

وجسرٌ ..

يؤثثُ في ظلهِ السيسبانَ ؟

تراءى كظلِ أبٍ ذات فجرٍ

فخبأ أحزانهُ خلف دربِ الكرومْ

❖❖❖❖

ملائكةٌ

يعبرون السماءَ..

صغاراً..

يفرون مثلَ الحمامْ

ويرتحلونَ.......

قصياً .. قصياً..

إلى حيثُ تبكي مساءً صبايا النجومْ

❖❖❖❖

هبيني إذن قشةً أيها الريحُ

سأرسمُ

في جبهةِ الليلِ نافذةً للضياءِ

أخط على الرمل خارطتي

ثم أمنحُها قبلةً

كي أعيدُ السموات

في قلبِ طفلٍ حلومْ

وردات في هطول الحنين

إلى أمي .. سنديانة العصافير المتعبة :

عجلى أراها الان تسكبُ جدولاً
أنقى مِنَ القمرِ المُسافِرِ
في ضفافِ الياسمينْ
يا أنتِ ..
يا أحلى صِغارَ الغَيمِ في نزحِ المواسمِ
يا صلاةَ الضوءِ فوقَ عباءتي
يا زَهوَ هذا العُشبِ في ورقي الحزينْ

❖❖❖❖

لطيوركِ اللاتي عبرنَ عشيةً
وذرفنَ أغنيةً على ورقي الجريحِ
للماءِ فاتحةٌ
وللأغصانِ
للورق الخريفيِّ المُهاجرِ في الضفائرِ
نبعُ أدعيةٍ
وعطرٌ
لهُ نيسانُ إذ عَبرَ المسيحُ !

(للساكن في وريدي) :

كم آية قد أينعت ورداً على

وجهِ أبي

كمْ من حمامٍ كان يهدِلُ

خلفَ شُباك الصَلاةِ مُسبحاً

يتلو وداعاً

ريثما مرَّ نبٌي

هاهُمْ أبي

حرقوا نخيلَ القلبِ

لحظة نزحِهمْ

حرقوا على العتباتِ أقماراً

هُنا

سَكنتْ على النجمِ حِكاياتٌ عِجافْ

لم يورثوني

غيرَ عُصفورٍ جَريحٍ

فرَّ مِن وطنٍ

وخَافْ !!!!! .

إلى الوطن الغافي على سفح النخيل:

البحرُ أصواتهم .. راياتهم سُـوَرُ كان ابن مـاجد ممن بينهـم عبرا

الركبُ مرَّ أبــو الشعثـاء يسـبقهُ أنى أقاموا أعـادواَ العُشبَ و المطـرا

عمـــائمٌ حّملتـها الريـحُ أنجُمَـهـا يا ضَـوء قاما تهم ما أكذب القمـرا

هم أولُّ النخلِ إسراءً على عطشٍ هُـم آخــرُ الموجِ ميلاداً وهـا كَبـرا

هـذي القلاع التي تمتد في دمِهم كم أرجَحَ الليلُ في جُدرانها صُـوَرا

كانت لهم في هِضابِ النورِ ألويةٌ في كُــلِّ نــائية خطـوا لهـم أثــرا

مروا على جــزر التاريخِ أخيلــة ولم يزل حيث مروا الدهر منتظـرا

لا أرسمها سوى نرجسة

هل تبصرونَ الآنَ (أبليتا) الصبيَّة ؟!

هي نخلتي ،

ما أودعتهُ حمائمُ السفر الجميلِ على يدي

هي مسقط السمراء

حناءُ انتمائي

ساحلُ الصحبِ المقدسِ

لو أضعتُ معابري

هـذا أنا ،

طفلُ الثلاثين الذي

أمضي غريباً

أشتاقُ في ليلي

لعصفورٍ ودارْ

كالريحِ عانقَ خيمةً

الشمسُ بيتي

و الظلالُ منائري !

يا طفلتي الغيداء

أشرعة اغترابي

رُفّي على نزف حنينيَ ياسميناً

إني رأيتكِ - ذات فجرٍ -

وردة حمراءَ

يا أنتِ

يا عبَّادَ شمسٍ في الصباحِ

و آيةً قُدسية تعلو فمي

يا من يبوح بها النهارُ بما يبوح

وما تبوح به أسرار « مريمَ » أختنا

تلك التي غنَّتْ لأخيلة المساء

وسافرتْ بدفاتري !!

خوفي بأن تنسي صِباي

و ربكتي في سُوقِ «مطرح»

سلة السعف الصغيرة .. غلتي

وعمامتي ،

إني غريبٌ دونَ مسقط

دونَ أنجمها الصغيرةِ

دون زحمتها الكثيرة

دون فجرٍ فرَّ منهُ - ذاتَ صيفٍ - طائري

هل تبصرونَ الآنَ (أبليتا) الجميلة ؟؟

إنني خبأتها

في ناظري !

عقدتُ فيكَ تمائمي

عِمْ نشيداً من الحُلمِ ،

و اسم قصياً ، كما يعرجُ الضوء

مُرتبكاً في حُضور الفراشاتِ

عُرس القصيدة

إني تهجَّيتُ عشقكَ – حدَّ الجنونِ –

فما غير وجهكَ يملاء هذا الفراغ عليَّ

ويفتحُ لي شرفة من سحابٌ !

تجلَّ ربيعاً

وألقِ خُزامكَ عطراً عليَّ

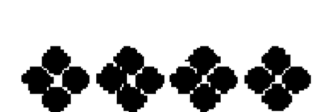
فلي ألفُ سوسنة

تشتهي فيكَ هذا النُّعاس

أحبكَ طفلاً شقياً ..

يحيطُ المكان بغير مكان

و يقرأني في بُكاء السرابّ



كأنَّ المساء يشَّكلُ صلصاله من جديدٍ

تنام العصافير في أحرفي

تعتلي شجراً في خطوط الكلامِ

لتترك لي قمراً في الكتابْ

سآويكَ ظلاً
إذا ضاقَ بوحُ النخيلِ
وما بيننا بيت قشٍّ قديمٍ
خُطانا هُناااااك
ورائحةُ الطينِ في فضّة الماءِ
أمنحكَ الآنَ قمح خريفي
أخبّئُ صوتكَ
حتى أفيق وتغفو الهضابْ

❖❖❖❖

قد اتسّع الآنَ هذا الفضاء
سأمضي
بلا قلقٍ كالصغارِ
لي الآنَ
أن أعتلي شفق الحلم
حتى أغني لطفلي الذي يشتهيهِ الندى
وأداعبُ عصفوره الليلكي
أراه يطاردُ طيرَ الينابيعِ في أضلعي
يا زَهورَ الصَلاة
لأنكَ نوّارة سقطتْ في دمائي
سأبقى أحبكَ - حدَّ التمادي -
وحتى أذان الصباح الأخيرْ ! .

همسة للظل

يا رفيقي في بياض الحلم

ما أقسى التمني

انت تمضي هاربا نحو المرايا

و أنا .. ماذا ؟ .. كأني !

سمني ماشئت

كبر الحلم إني

ما الذي تخشاه بعد اليوم

قل لي ؟

« عمرنا يمضي

و عمر من ومراء الموت آتِ »

ربما يوما سأدنو

حاملا حزني النبيل

سر هذا الضوء في أعماق ذاتي

طريقان للماء

إذن مرَّ هذا الصباحُ

و دونكَ

لم يورق الياسمين نديًّا

إذن لم يحنُ المساء لنعناعةٍ

كي نُطيل الكلامَ

و تنثر سُكر أحلامنا

قصباً في يديا

هنا الوردُ ما زال أصفر

في الشرفتينِ

ونكهة بُن المساءِ بفنجاننا

شمعنا في العشيةً

هذي أنا

طفلة الفل ما زلت بين يديكَ

أطيلُ السماع (لياماكِ) بَحركَ

و الموجُ من حولنا رحلة مرمرية

❖❖❖❖

تذرَّع

بلون الغمامِ

نقاء اليمامِ

وصوت نبِّي بدى متعباً

تهَّج لغات الرياحِ

لتبحثَ عن أيكةِ الأغنيات

وعصفورة تشتهي غيمة

وكنتُ أظن بأني هنا

من تأبطتُ كل قصائد عِشقكَ

للماءِ ، للنخلِ

ثم نسيتُ هنالك

بين البساتين كل بكاء الصبِّيةْ

ألِفْتُ احتضار الفراشات في الضوء

خذ ما تشاء

ودع لي هنا زنبقا وكتابا

سيأتي شتاء

ويحمل للناعسين هدية !

قصص

آخر العصافير رحيلا

لا صوت بين الأرجاء المعتمة سوى أزيز المهد الحديدي الصغير المطوق بخرز أزرق من كل زاوية ، وتمتمات العجوز السمينة التي كانت تغني بلغتها الأفريقية للكومة البيضاء النائمة بداخله . يطل برأسه من خلف الباب الصدئ والملطخ بألوان أقلام الشمع و الرصاص .. يطيل النظر إليها ، وحين لمحت ظله قالت بصوت هادئ : (هل تحرش بك أحدهم يا بني ؟) .. لم يجبها إنما ظل يرمقها ببراءة و هو يداعب فاهه بطرف سبابته الصغيرة ، ثم جعلت تكمل بعد أن التفتت إليه : (لا بد وأنهم قد عيروك بأمك السوداء) ، تقدم منها بخطوات متثاقلة ثم جلس ملاصقا ركبتها ، رفع رأسه وقال بصوت مبحوح بعد أن تنهد بحزن : (أنا أحبك جدا) .. وكانت بعض سحابات دامعة تجول بين عينيه المدورتين كلوزتا صيف هادئ .. تدحرجت دمعة راحت تحبو ببطء على خده القمحي و الملئ بالندوب و الشموخ اثر المشاحنات الدائمة بين أطفال الحارة النائية تلك . تبتسم العجوز ابتسامة يشوبها الصمت و الحزن معا ، ثم تلصق رأسه بصدرها مداعبة شعره الكثيف .. تختلط الألوان الثلاثة معا .. تنغمس الغرفة في الظلام إلا من ضوء قمري تحرش من بين زجاج النافذة مخترقا المدى بقوسه الطويل .

الماء كان دائما رفيق وحدته .. و (الفلج) الفضي الطويل الذي كان يراه بحرا عميقا جنوني الموج، كان يذكره دائما بإخوته في الله كما كانت تسميهم العجوز.. أولئك الأيتام الأكثر جنونا وشقاوة بين حفنة البؤساء

الصغار في بيت تلك العجوز المتآكل اثر تقلبات الفصول، وثرثرات الريح، يتساءل الناس عادة : (لماذا تحتضن تلك العجوز جميع ألئك الصغار؟. كيف تتحمل صراخهم ، أعاقا تهم ، بكاءهم ،و سهرهم الطويل ؟!).. «دجالة» هذا ما يقال عنها في مجالس النساء على ردهات البيوت الطينية في القرية وبين قناديل الأسحار المليئة بالحكايات الطويلة و التي أشيع فيها بأنها تستغل هؤلاء الصغار لشعوذاتها ، وبأن فيهم من تقدمه قربانا للشياطين وجن الليالي المعتمة .. بغيظه .. زنجية ..) ، يهز الصغير رأسه و كأنه يطرد تلك الهواجس التي تضاربت من حوله . البارحة فقط توفي اثنان منهما غرقا في هذا البحر العميق و الهزيل .. كانا الأكثر شقاوة لا يفترقان أبدا و كأنهما فرقدا مساء لا ينجلي قمره و لا تشوبه غيوم الشتاء. ولكنهما رحلا..

يتأبط ذراعيها الثقيلتين محدقا في وجهها الشاخص تجاه الأجداث المسورة هناك في البعيد بين تلال موحشة و أشجار عارية تلبسها اليباس و خلفها الأسلاف بعد طول جفاف و قحط فأصبحت موطنا للأجساد الراحلة إلى العالم الآخر .. تلمح في حزن شديد جنازة طفليها و تشابك يديهما معا حتى و هما يؤخذان إلي ظلمة الأبدية ، رفض الرجال دفنهما معا . يعلق أحد أصحاب الضمائر العفنة و القاصد رضى الله في دفن أيتام صغار : (اللعنة لهؤلاء .. حتى التراب لن يسلم من شقاوتهما معا) .. يلكزه أحدهم بكوعه ويغمز له قائلا : (العجوز ستغضب و سيأتي الدور عليك يا رفيقي) ، يعلق ساخرا : (علك ستكون الأسبق ، فأنت زنجي مثلها !) .

وبالرغم من انهما غصنان صغيران قد انكسرا من سنديانة الزمن

المر، إلا أن الجنازة قد امتلأت بالناس ، فيهم من بدى عليه الندم ، و فيهم من قال (أكلتهم العجوز الملعونة) و استغفر البعض دون تعليق .

تبكي العجوز وحيدة ، و كانت بين الحين و الآخر تأن أنينا هادئا لكن بعيدا عن الجميع ، فهي تدرك الآن أن للكائنات أحزان لا تنتهي وأن للصيف نبض وإحساس!. لا يراها أحد سوى الله و حائط محترق ، قاتم كوجهها .

مضى وقت من الزمن.. العجوز تمشط السوق المكتظ بالمارة والتجار، وأصحاب البقالات ..ثم ترشق سلاما لجامع الإمام فتتابع سيرها ، و خلفها يمضي الصغار الأشقياء صفا و احدا بأسمالهم البالية .. ثم يركض إليها – الصغير- الأكثر تعلقا بها .. يمسك بكفها كي تقوده بنفسها حيثما تتجه.. و تبدأ المشاجرات البريئة بين الصغار .. أحدهم يلكز الآخر بكوعه على رقبته .. يصرخ الأخير و تبدأ الفوضى من جديد .. تستدير العجوز.. يتوقف الجميع ويسكت .. يصطدم آخرهم برفيقه في الصف لأنه سرح بنظره في عربة الحلوى على ركن السوق في الخلف ، ثم تعاتبهم بنظرة لا يفهمها سوى هؤلاء البؤساء .. ويتابع الجميع طريقه ......

وبينما هي تتفحص الخضراوات في العربة الخشبية شعرت بأحدهم يرَّبت على كتفها بهدوء ثم يقول بصوت يشبه الهمس : (أيتها العمة) . تستدير إليه و تحدجه بنظرتها الوقور فترد: (سم يا بني) .. تغيرت ملامح وجهه حين شعر بتلك السماحة التي كانت تعتلي ملامح وجهها .. تنحنح قليلا ،ثم أطال النظر إلى وجه الطفل المتأبط ذراعيها و الذي كان يحملق في وجهه ببراءة ملائكية لا حدود لها.. (مشهد يدعو إلى التراجع) .. كان الشاب قد حرك شفتيه ليتكلم لكنه تراجع ولزم صمتا

طويلا .. حينها سبقته العجوز بسؤال خاطف : (ألديك ما تقوله ؟) .. يرد بسرعة و كأنه يريد التخلص من رسالة كلف بها مرغما : (الوزارة تطالب بنقل هؤلاء الصغار إلى دار الأيتام .. هناك شكاوي تقول بأنك تستغلين هؤلاء الأطفال في عمل أشياء غير مشروعة و....) لم يكمل الشاب باقي عبارته .. بلع ريقه ثم أكمل بهدوء : "يؤسفني أن أقول لك ذلك" .

ترمقه بهدوء ثم ترد : (وها أنت تمسك بي في الجرم المشهود .. أليس كذلك يا بنيّ؟!) ..ثم ظلت ابتسامتها الهادئة بين شفتيها ، فتركته متجهة إلى الأمام ، مخلفة ذلك الخواء من حوله ، وبعض التساؤلات المبهمة التي انطبعت على ملامحه .. جفف رقبته من العرق بمنديله الذي سحبه بسرعة من جيبه الأيمن ،ثم أخذ نفسا عميقا أطلقه في الهواء بهدوء .. حمل بعضه متجها إلى سيارته التي كانت خلف السوق.. ثم اختفي وسط جموع العربات و زحمة المارة . يدّوى صوت بائع الأسماك بغتة : (طازجة من البحر) .

كانت كلما شعرت بالألم يزحف بين مفاصلها أوت إلى شجرة الليمون خلف (الحوش) لتتفيأ تحت ظلالها العريضة .. تبسط عباءتها السوداء جانبا ، وتقلب خرز مسبحتها الحمراء بين أناملها .. تغمض عينيها وتتمتم بأسماء الله الحسنى .. شعرت فجأة بدفء جسده النحيل يتكأ عليها .. أحاطته بذراعها و أكملت دون أن تفتح عينيها لكنه كان يراقب تقلبات عينيها الضيقتين ، وقد أحس بأن هناك دمعة حبيسة تريد التحرر من بين تلك الجلدة المحبوسة فيها . هذا الصغير يريد اكتشاف هذا العالم الكبير، و الغامض ، و الملئ بالصمت و الحزن معا .. لم يزح عينيه عنها.. ولم تحرر هي دمعتها .. خشية ضعف في ساعات الألم الكبيرا .. لكنه

يدرك ، ويعرف أن هنالك شئ ما..سر ما..ألم ما.........

يختنق الصباح بلهب الصيف المكتنز برائحة الطين المبلل ، ودخان الحطب المحروق و المنبعث من المزارع البعيدة في الريف . تتثاقل أقدام الصغار و هم يتجهون إلى الباص الذي بعثته الوزارة صعودا ، وهم عصافير لا تفقه من الحياة سوى أن هناك طريق ربما سيأخذهم إلى رحيل مباغت صوب غابات وأحراش .. يتشاجرون من سيجلس في مقدمة الباص.. وكان هو آخرهم كالعادة .. وحده يدرك أن الطريق إلى تلك الغابات التي رسمتها عقولهم الصغيرة موحش و طويل وليس ثمة من غيم ماطر في الصيف، لكنه يصمت كثيرا.. يطل بنصف وجهه من الشباك ساحبا الستارة الكحلية اللون المتدلية منها .. وينظر إلى العجوز بألم ، بينما هي تومئ له برأسها أن يظل شجاعا كما عرفته .. تحركت الباص فجأة وانغلق الباب تلقائيا .. يأمر السائق العجوز بإنزال الستائر.. واختفى نبض الصيف وتغلف المكان برطوبة مكيفات الهواء المختلطة برائحة النايلون المنبعثة من الكراسي .. وكان بعض الجيران الفضوليين يطلون برؤسهم من خلف مشربياتهم ليرقبوا المشهد الأخير من حلقة العجوز الخرفة و صغارها الأشقياء .. فينطلق الباص أخيرا مخلفا وراءه لا شئ .. غبار .. وفراغ شاسع .. وحزن كبير. العجوز تختفي شيئا فشيئا، و المنازل القروية ذات المشربيات الخشبية و المليئة بثياب الغسيل تختفي أيضا ، ويطل الطريق الترابي الطويل .. الذي سينتهي بهم إلى العاصمة.

تتلاحق الأشهر .. ويلتصق الصمت بالمجهول .. أصوات الصغار في الداخل تتردد كمواء القطط المشردة .. الباب الكبير محاط باقاليد حديدية متدلية كعناقيد النار .. كل شئ مغلق تحيطه أسوار عالية ،

لطالما شعر بأنه عصفور تائه.. يقف وحيدا .. ملاصقا الباب الحديدي المطل على الشارع المسفلت و الغائص في صمتٍ مقيت . صوت نباح ومن راء الوهاد البعيدة .. كان الشتاء رطبا و الغيوم كثيفة في عناقها.. عزلة مطوقة بقلق يبعث الحزن و السأم معا .. عزلة في كل شئ .. عزلة حتى عن الكلام .. تتأفف إحدى العاملات في الدار وتمسك بأحدهم .. تمطره بالسباب و اللعنات : (أيها اللقيط البغيض..فليأخذكم الله جميعا) ، ثم تسحب الآخر في طريقها وتلطم جسده النحيل في الجدار لتصيح في وجهه : (ماذا فعلت في ثيابك أيها الملعون الشقي .. فلتذهب أنت الآخر إلي سابع جحيم...) ، وما أن يمر أحد المسئولين حتى تتظاهر العاملة بالصمت و الهدوء بعد أن تطلق سراح من سجنتهم بين قبضتها الثعلبية.. تتحرر العصافير هاربة في فراغ الأمكنة المرصوفة برصيف احمر باهت كان قد رُصف منذ مدة طويلة وتآكلت قسماته منذ سنين وبدت عليه الكثير من التعرجات و الانحناءات المائلة إلى الأسفل ، إنها نفس الخاتمة من حكاية كل المساءات هناك .. يشعل القمر انكسارا ته.. ويسكت الليل عن الكلام المباح .

ينتشي الفجر بضباب شتائي كثيف ، و يجب على هذه العصافير أن تبقى داخل أقفاصها المغلقة في الداخل ما دام المطر يثرثر خارجا ، انه الشتاء..السجن الآخر والمطوق بالبكاءات .. يموت احدهم دون سبب ـ هكذا ـ ربما لان العالم قد ضاق به و لم يجد نقطة هروب تقوده إلى مرفأ آخر غير ذلك .. لكنه يموت وحيدا كالأشجار .. لم تبكيه سوى الأصداء.. كان مشاغبا و نحيلا عندما كان يتسلق أكتاف العجوز الزنجية وها قد أصبح أحد العصافير الراحلة .. لكنه لم يمت ولم ينتظر أن تقبل جبهته

شفاه غليظة و متدلية كتلك التي اعتاد أن يشعر برطوبتها كلما أوى إلي الفراش ليلا عندما كان الرغيف ألذ من مطر الصيف ، و السماء أكثر اتساعا، و الطريق ملئ بالشجر، و الأرجاء تتردد حولها أغنيات نابية !. أين تراها انطفأت تلك الوديعة كالندى ، و الحالمة كعصفور ربيع شارد !؟ - يتساءل في مرارة- ويشتاق إلى نظرة عينيها الحزينة ، و بكاءها الصامت الذي طالما شعر به .

يرقب من النافذة بعض المسؤولين الذين تكفلوا بإجراءات الجنازة.. شعر برعشة كادت تسقطه أرضا .. فنام على فراشه طويلا وقد كان يتمتم باسم العجوز طيلة أيام مرضه .. قيل أن الحمى أصابته بالخرف ، وان تلك العجوز لا زالت تمارس حقاراتها حتى و هي في المنفى البعيد حيث الحكايات التي لا تنتهي .

خرج السائق العجوز من الباص متجها إلى الصغير الواقف على الباب الحديدي المسور والمنفرد وحيدا كعادته ، جلس الرجل على ركبتيه وجذب الصغير بحذر ليديره نحوه، رمقه بابتسامة وجعل يقول : (سوف نشتاق إليك إذا رحلت .. يجب عليك أن تنطلق بعيدا عن هذه الأقفاص، فللحرية طعم جميل .. أليس كذلك !؟) ، راح الصغير يحدق فيه باستغراب، و قد بدت على ملامحه بعض التساؤلات المبهمة . ضحك العجوز و هو يرفع شعر الصغير إلى الخلف قائلا بلهجة سريعه : (سنذهب اليوم إلى رحلة في الريف وسوف آخذك معي لترى أمك .. ليكن هذا سر بيننا ، ما رأيك ؟) ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه الصغير ، ثم ألقى بجسده النحيل على صدر العجوز و هتف فرِحا: (سأرى أمي ؟) . أزاحه العجوز جانبا بحذر فهمس مبتسما : ششش.. لا تفضح السر .

كل شئ كما كان..المارة من الشيوخ القادمين من المساجد ، الصغار الذين يتراشقون الطين المبلل وبعض الكور التي صنعوها من الأسمال البالية ، روائح الخبز الأسمر المنبعث من التنور الذي يملا بروائحه الأزقة الضيقة ، تلك المليئة أيضا بروائح العفن و بقايا ما خلفته القطط المشردة في الأوحال الراكدة . لكن ليس ثمة غناء نابي .. لا صف طويل من الأيتام الأشقياء الذين اعتادوا التشرد هنا و هناك . رفع الصغير رأسه إلى وجه السائق العجوز المسك بيده وحدجه بنظرة هادئة فيها الكثير من التساؤلات ،بادله العجوز ابتسامة عذبه وقال بصوت هادئ : (خذني إلى حيث تريد .) ابتسم الصغير ابتسامة جميلة .. وراح يقوده بيده في الشارع.. يتداخل الشارع ويطول حيث البيت المتآكل الصغير.. بدى مظلما وقاتما .. هذا البيت الذي كان يضج بالحركة و الصراخ و الدفء الكبير . يترك الصغير يد العجوز ، ويطل برأسه قليلا داخل المنزل .. القنديل المتدلي من فوق السقف بدى ساكنا ، تتأرجح أضواءه الخافتة في حزن مقيت ، وصرير الباب في الداخل تتناقله الريح وتعبث به من خلال النافذة المهلهلة الستائر . يتفحص المكان بقلق ، ثم يدخل بخطوات بطيئة و متثاقلة .. لا بد وأنها قد رحلت ؟ لكن إلى أين وهي لا تملك سوى هذا البيت الصغير وشجرة ليمون عجوز في الخلف كانت لها المأوى الآخر. انتفض الصغير حين أحس بدفء يد السائق العجوز وهي تربت على كتفه، ثم استدار إليه الصغير قائلا وفي صوته بحة بها رنة حزن : (أمي رحلت) .. فأطل لحظتها رأس ابن الجيران الفضولي من الباب وصاح بهم هازئا (هل تبحثون عن شبح الزنجية ؟)..التفت العجوز إليه وقال ممتعضا وفي وجهه علامات غضب لم يستطع أن يخفها : (كفَّ عن السخرية ،

وقل أين رحلت السيدة ؟) أثارت كلمات العجوز غضب الصبي فأخرج لسانه هازئا: (لن أخبرك) !! وفرَّ هاربا !. فدوى بغتة صوت إحدى النسوة التي أخرجت رأسها من خلف مشربية بيتها الملاصق لبيت العجوز هاتفة: (لا تُتعب نفسك ، فالعجوز قد خرجت من بيتها لأداء العمرة ، ولم تعد منذ ذلك اليوم) ،ثم اطلقت ضحكة هازئة وواصلت حديثها: (يقال بأنها قد أفلت كنجم آذار الغائب ولن تعود) ، هزَّ العجوز رأسه يائسا فقال لها : (قولي بحق كل عزيز لديك .. لمَ كل هذه الغيبة في حق تلك العجوز المسكينة التي لم تطلب سوى الأجر من الله في حق تربية أيتام صغار، وكانت تقابل إساءاتكم بصبر لا يحتمله سوى من يملك قلب طاهر كقلبها) . تأثرت السيدة بكلمات السائق العجوز ، فبدى التغير واضحا في ملامح وجهها ، ثم قالت بسرعة كي تتدارك موقف هزيمتها قبل أن تغلق مشربيتها : (ذنبها أنها زنجية بغيظه ، تعيش في هذا العالم ..فلتذهب إلي الجحيم إذن) . بقى العجوز واقفا هو و الصغير ، بينما تردد صوت غراب مرَّ بغتة من فوق رؤوسهم وتردد صدى نعيقه في السماء التي أوشك غروبها على الأفول ، فانطفأ في كبده !! .

(بعد مدة) : عندما دخل الصغير إلى المكتب كان للجو رائحة أشبه ما تكون برائحة التبغ المحروق ، و كانت أصوات الصغار كالعادة تتعالى في الخارج . أذاب الرجل عريض الجثة و الجالس أمام مديرة الدار ملعقة السكر في كوبه ، ومسح بمنديله ما بقي عالقا بين أنامله ، ثم رمق الصغير بنظرة حادة وهو يتفحصه ، يلثم دخان سيجارته.. ثم يطلقه في الخواء الرحب مخلفا دوائر من الدخان الرمادي تناثرت سحائبه بعشوائية في فضاء المكتب ، تلقى المرأة الجالسة بجواره نظرة خاطفة عليه ثم تومئ له

برأسها كإشارة تشبه الموافقة ، تنهض المديرة من على كرسيها مبتسمة ثم تقول موجهة الكلام إلى الرجل وهي تمد له يدها مصافحة : (إذن سنتكفل بباقي الإجراءات غدا) يبادلها يد المصافحة بسرعة مع أن علامات الرضا لم تكن بادية عليه فخرج بسرعة ، بينما تبعته المرأة مسرعة و هي تسحب عباءتها السوداء من الكرسي الجالسة عليه .. وقبل أن تغادر استدارت نحو الصغير وبادلته ابتسامة حنونة ، فخرجت مغلقة الباب خلفها بهدوء . شعر الصغير بأن هنالك رحلة لصيف آخر طويل قادم، أدرك الآن معنى كلام السائق العجوز حين ودعه لآخر مرة وهو يمطره بكلمات الوداع الملغومة بالألغاز .. أدرك لماذا أخذه إلى الريف ؟؟ أدرك لماذا هو دائما يسأل ....

إحدى العاملات كانت تدحرج حقيبة كبيرة نحو سيارة الرجل الذي زار الدار لآخر مرة ، وحين داست قدم الصغير آخر مربع من الرصيف أشاح بنظره جهة الباص الواقف على زاوية الجدار وقد كان يتكأ على بابه رجل سمين غث الطلة و الملابس ، وعلى كتفه كانت تستريح خرقة كحلية مبللة، يبدو انه قد أتّم للتو تنظيف الباص . ثم راح يدخن بشراهة بينما هو يطارد بنظراته تحركات العاملات هنا و هناك وعلى وجهه ابتسامة خبيثة . أين السائق العجوز إذن ؟ و لماذا طرد من عمله يا ترى؟ الأسئلة لا تنتهي .. مجرد علامات استفهام خاوية .. ما زال العالم صغيرا . لكنه ملئ بالروايات الطويلة و الأساطير، و القصص العابرة التي لم تُعرف لها نهاية . هذا الصغير و منذ أن سقط من رحم ميلاده التعس ، لم يكف عن الأسئلة ... بقي سؤال آخر يتيم .. (إلى أي أرخبيل سينفى هذه المرة؟) ظل يتأمل الرجل الذي بدى جادا وهو يمسك بمقود سيارته محدقا في

الأمام دون أن ينبس بكلمة واحدة ، أو يبادر بابتسامة ما ، وقد بدت على ملامح وجهه الكثير من الهموم وكأنه كان غارقا في بحر حزين لا قرار له أو مرفأ .. بدى بشكله العابس ذاك مستوحشا في دائرة ضيقة من الصمت و الضجر معا ، أشاح الصغير بنظره جهة الشارع الممتد .. فأخذ نفسا عميقا و أطلقه بهدوء في الهواء كأنما كان يزفر معه همه الثقيل وقلقه من مجهول آت . ترى إلى جهة سيرحل هذه المرة ؟ . لقد ودع الكثير من الوجوه الجميلة و الحزينة ، لكنه لا يعرف في أي السماوات قد أفلت تلك الوجوه ، وها هو يودع وجهه لآخر مرة .. هذا الوجه الذي سيرحل هاربا إلى مجهول قادم .

الهاتف الجوال يرن دون توقف..وكان لصوته وقع صدىً حزين.. ما زال هذا الرجل صامدا كجبل من ثلج ، لم يتذمر، لم يلتفت ، لم يعلق سوى بهزة رأس خاطفة ، انعطفت السيارة وسط درب طويل من رؤوس شجر الحناء.. وبدت بعض الحدائق والمنازل المختلفة الخرائط واضحة في البعيد.. فشرعت الشمس تصلي بخشوع متوارية خلف جبل صامد كان ماثلا خلف تلك المنازل ، وقد أحاطها وهج الشفق الأحمر الذي ظل نازفا و هو يحمل معه وجوه من عبروا في الذاكرة .. وحين حدق إليها رأى سرب عصافير راحلة .. تركه السرب وظل وحيدا !!!!!!! .

يـــــورا

طريق (السيسبانة (١)) الحالم بالغيم و الحمائم يتنفس وجع الشتاء الذي هلَّ حزيناً هذا العام . سحب تمطر ببطء .. و التنور الذي كان يضج بخبز القمح و (الطابق (٢)) الأشهى من مطر الصيف ما عادت رائحته تعانق برد الرصيف المتآكل .. فقد هجرته العجوز منذ عام .. تلك التي تركت على العتبات ظلها للمارقين .. حيث الرصيف متكدس بحمرة آخر النهار .. و هاجرت إلى منفى الراحلين الذين ماتوا بغير وداع .. أو هكذا.. كما أسمتهم الأرض المتعبة من نقمات البشر تترى .. !. يتقاذف الصغار ذوي الأسمال الرثة و البالية كرات الطين غير عابئين بصراخ الصبيَّة الجميلة ذات اللون الذي يخجل منه البيدر و صوتها الذي كان يتردد محموما بآهات الولادة في آخر اللحضات ..

- (ما زال الوقت مبكرا) ، خرجت (الداية (٣)) وهي تجفف يديها بفوطة قطنية مبللة ، بعد أن تركت (سطل) الماء الساخن على الطاولة .

دنت منها الام المفجوعة .. و زمجرت مرتعشة في قلق : (لكنها تموت..تموت)

تضحك الداية : (أشقياء الأرض لا يموتون ...) .

ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة هازئة .. فصفعت الباب وراءها بعد أن رشفت في طريق خروجها ما بقي في فنجان القهوة المتروك على الطاولة بجانب آنية الزهر بمحاذاة الباب .

زلف الليل مقتحما وحشة الذين يدمنون الأزقة المظلمة ، و يبتكرون لتواريخهم المعطوبة بالفراغ غمائم تمطر نزفا في قحط مساء مؤلم ومثقل بالحكايا .. (تلك التي هي أكبر من سراب طائش) !! .. و كانت رائحة التبغ و التفاح تختلطان برائحة تشبه رائحة الزيت و البارود .. و المجنونة الشعثة لا تزال تدمن نفس الزاوية في بيتها المتآكل وهي تهز المهد الحديدي الصدئ .. الذي أوجعته « عشرة أعوام من العزلة » و الحزن معا .. وتوقظ بصوتها الحزين صمت المكان : (ديللول الولد يابني (٤)) فيخترق صوت المهد بطنينه المزعج هدأة الصمت المقيت ووحشة الظلام .. تشوح ببصرها جهة النافذة التي تحرشها ضوء قمري هزيل أنجبته غيمة استقرت في كبد السماء الملبدة بغيم الشتاء الحزين .. فأطالت النظر قليلا إليها و جعلت تكمل بصوت هادئ تخللته بحة حزن : (الليل مّد ايده على راسي .. و المطر شد حيله !) . أغلقت لحظتها أم الصبيّة المتأوهة شباكها المقابل بقوة وجعلت تقول ساخطة من بين أسنانها : (متى تموت هذه اللعينة .. ابنتي تتأوه ألما .. ووجه النحس هذا يقابل شباكي .. فليأخذها الله ويرتاح أهل الحي من نحسها) . هكذا عششت عصافير القسوة في قلوب أبناء الحي الغارق في حزنه وتعبه وشتاءه الذي يباغت أجنة (الياس (٥))

تستيقظ (السيسبانة) على وجه شمس شاحبة .. تشاكس الغبة العائمة في عفن طين ما خلفه مطر البارحة .. تمسح السيدة رأس الصبية بماء الزهر وتباركها بدعاء خاطف ، ثم تقبل جبينها وتهمس في أذنها بهدوء : (غدا ستلدين طفلا جميلا .. مثلك .. مثلك تماما).

ترد الصبية بعبارة موجزة : (وعيناه لوزيتان .. كعيني أبيه !)

يتسلق الغيم ثانية طرق الحي الفقير .. وصراخ الصغار الذاهبين إلى مدارسهم البعيدة مشيا يناطح في إزعاجٍ صوت المذياع المعلق في سقف المقهى الذي لا يبث سوى نشرات الأخبار التي تتخللها بين الحين والآخر فواصل موسيقى (الدبكة (٦)) ذات الموشحات الوطنية ! .

يحمل أبو الصبيّة (ارجيلته) الهزيلة و يعزل نفسه جهة الزاوية متحاشيا نظرات الفضوليين وعباراتهم القذرة ، يلكزه أحدهم هامسا: (أما زال نسيبك غائبا ؟) ينفض العجوز الرماد الذي تناثر في جلبابه المهلهل .. يتأمل المكان يمينا و شمالا في قلق ثم يغمز له أن يقرب أذنيه ليحدثه .. يقترب الرجل بفضول ، فيهتف العجوز بصوت هادئ به غضب : (إذا لم يقطعوا هم لسانك كما فعلوا لسبعة من الفضوليين أمثالك .. فسأتبرع أنا بذلك دون تردد .. اتفقنا ؟) .
مسح الرجل سحنته بامتعاض فآثر التراجع ثم قال بهدوء : (كنت أسأل فقط عن غائبكم الذي غادر مبتسما .. ولم يعد .. و...) .. يقاطعه العجوز بغتة وهو يدفعه بغضب جانبا : (اسكت .. اسكت .. لا تتكلم .. دعني أحتفظ بما بقى لي من جسد وروح !!) ثم انتبها معا لصبي نحيل جاء ركضا وقد بدا متثاقلا ، متبختراً في ركضته.. توجه نحو صاحب المقهى السمين الذي كان على عتبة الشيخوخة يراقب بحذر وجوه الجالسين على الطاولات وكان بعضهم يتشاجر على طاولة النرد.. يحدثه الصبي في أذنه ثم يخرج بشكل خاطف شريطا موسيقيا كان قد خبئه داخل قميصه ، فتناوله صاحب المقهى وخبأه

داخل جيب سترته سريعا وأمر الصبي بالانصراف فورا بحركة من يده .. ولم يعره الجالسون اهتماما .. كان هذا الأخير بالغ الغباء ــــ الكل يعرف ذلك ــــ ! . نسي العجوز مشادته مع الرجل فقال وهو يحمل معطفه الشتوي كي يرحل : (مسكين هذا الصبي .. أصبح اعرجا. الأجدر بي أن أذهب لرؤية ابنتي ، ربما ولدت طفلها المنتظر.. ذاك المنتظر السعيد) . فرد الآخر بعبارة خاطفة : (ماذا ستسميه لو جاء صبيا ؟) .. استدار العجوز وقال بسرعة : (هو كذلك .. هكذا تقول أمه .. وجميل مثلها .. كذلك تقول بأن عيناه جميلتان .. ولا بد ستصدق نبوءتها) .. مرت فجأة تلك المجنونة أمامهم حافية القدمين.. وهي تحمل لفافة فارغة من القطن الرخيص : (ديللول الولد يا ابني) .. يتبادل الرجلان النظرات ذاتها ككل مرة ، ثم يرحل كل في طريقه .. لكن بصمت .

تتبع المجنونة بخطوات سريعة العجوز و تشده من ياقة جلبابه حتى كادت تخنقه .. يدفعها بقوة ويلعنها : (اغربي عني يا وجه النحس) .. تحملق الأخيرة في وجهه بهدوء ثم ترد ببراءة : (حفيدك القادم سيكون جميلا .. كابني هذا) ثم بسطت أمام عينيه لفافتها الفارغة وأكملت : (وسأغني له .. سأسميه نصف اسم فقط وعندما يخرج إلى هذه الحياة سأمنحه النصف الآخر من الاسم .. سأسميه (يورا).. جميل هذا الاسم .. أليس كذلك ؟) ضحك وهو يدفعها هازئا : (أشفق عليك أحيانا.. فزوجك كان فضوليا .. وستدفعين أنت أيضا ثمن فضولك كباقي أشقياء هذه الأرض) . تقاطعه بسرعة:

(ما زالت الأرض تعشب .. ووجع النهرين يلتقي !!!) ..و تغرب راكضة جهة الأزقة الراكدة في الوحول وهي تصيح هاتفة : (يورا .. يورا..) بينما يقذفها صغار الزقاق بقذائف بواريدهم الخشبية التي لا تطلق فوهاتها سوى حجر الطين اليابس... فضاع صوتها بين الأزقة النخرة.. وغاب شيئا فشيئا.. مخلفا ذلك الصدى الموحش .

تخرج أم الصبية الجميلة من مصلى النساء في الجامع القديم الذي بللت فرشته العتيقة بكاءات الأرامل و أدعية المساءات الطويلة.. ترشق دعاءا .. وتتمتم بهدوء ، فتمر بجانبها سيدة تتشح سوادا .. تهمس في أذنها وهي تناولها حجابا ملفوفا بشرائط بيضاء : (علقيه على رقبتها قبل أن تلد) ، تهز رأسها راضية ثم تخبأه في صدرها .. و تمضي .. لكن بصمت .. بينما تتبعها بقية النسوة بنظرات ذات مغزى .

تصل السيدة إلى البيت و تترك نعلها على المصطبة .. ثم تقصد غرفة ابنتها .. اقتربت من تختها المعلق عليه تمائم زرقاء من كل ناحية .. وقد كانت الصبية تأن أنينا هادئا . قبلت السيدة جبين الصبية الذي كان ينضح عرقا .. ثم وضعت الحجاب على رقبتها .. أحست الصبية بذلك فقالت بصوت هادئ جدا :٠(اذهبي لتنادي (الداية).. أريد أن ترى جميع الحاسدات طفلي الجميل) .كانت الأم قد حركت شفتيها لتتكلم لولا أن صوت المجنونة ذاتها اخترق الصمت وهي تردد نفس العبارة : (يورا .. القادم المنتظر) عندها أغلقت الأم الشباك بغضب فهزت رأسها مزمجرة في غضب وهي تقول من بين

أسنانها : (الملعونة .. ابنة الـ...) ثم استغفرت ربها وخرجت صافعة باب الغرفة وراءها .

ما زال الشارع يقرّ من برد الشتاء .. العجوز يمشط الشارع متوجها إلى المقهى المزدحم بالحزانى الذين أثقلوا صدورهم بأدخنة الاراجيل المتسخة بالرماد وفي عيونهم أوطان نابتة من شجر الجرح الذابل في الأعماق، ومن اجل أن يستمعوا إلى نشرات الأخبار على المذياع العتيق.. وكان بعض الصِبيةِ يفركون أحذية المارة السمان .. المليئة جيوبهم بالدراهم ، وبطونهم بالخبز و اللحم ، يهرولون حاملين (سطولهم) المتخمة بالماء و الصابون المتسخ وهم يتسابقون من اجل صيده ثمينة.. وخلف ظلالهم طفولة يجرحها جوع يبحث عن رغيف هارب .. بينما يتبعهم صاحب المقهى بقضيب خيزرانته الطويلة مزمجرا في وجوههم بشراسة : (اغربوا من هنا أيها الأوغاد السفلة .. وإلا مارست عليكم جميع صنوف الاضطهادات التي يمارسها تجار السوق على أمثالكم من الحمير) .. يتفرق الصبية في وحول الواجهات.. بينما يصيح أحدهم من بعيد : (وستكون أنت أولنا في سوق الماشية !) .. يضحك العجوز فيعلق بصوت خافت وهو يسحب كرسيه : (ألا يعلم هؤلاء الأغبياء .. بأننا جميعا نتزاحم في نفس الحضيرة ؟) . ناوله صبي المقهى بغتة ارجيلته وتدخل في الحديث هازئا : (لكن ينقصنا سور حديدي .. وبعض الأقفاص أيها المهرج العجوز .. وسنترك انتخاب جلاد السيرك عليك) ثم ولى هاربا وهو يقهقه بصوت عال .. يلعنه العجوز بحدة : (ابن الحمير .. يسمع حتى همس الجدران) فيقطع

عليه فجأة ابن الجيران الصغير حديثه ومن بين أنفاسه المتلاحقة يهتف : (عم جبار .. ابنتك وضعت مولودها). وبسرعة يترك العجوز ارجيلته التي سقطت مع علبة الزهر الذي تناثر في الأرضية ذات البلاط المخلوع و المتآكل محدثة فرقعة جعلت العيون تستدير إليه .. وكانت بها شفقة ما .

يمشي العجوز بخطوات بطيئة و متثاقلة جهة الغرفة التي تُرك بابها مفتوحا وستائرها القديمة مهلهلة.. مخلفا وراءه ذلك الخواء الحزين.. كان القنديل يصدغ فوق السقف و كأن ريحا تحركه.. وبدا المكان قاتما مضمحلا .. ولا صوت سوى طقطقات نعله القديم .

وقف منتصبا وهو يتأمل تخت ابنته التي اقتربت منه بوجه شاحب تعب و كان شعرها الكستنائي المبلل يغطي عينيها الفراتيين .. ظل يرمقها بهدوء دون أن ينبس بكلمة .. بينما دنت هي منه شيئا فشيئا: (لا أريده !!) هكذا علقت بهدوء فاطرق العجوز رأسه في الأرض .. أحس بيد تربِّتُ على كتفه بحنان وكانت امرأته .. همس : (أين هو؟) فأشارت له بسبابتها إلى الشباك .. حيث كانت المجنونة تمشي وهي تلفه بحنان في صدرها .. ترمق العجوز بابتسامة طفولية بريئة ..ساترة جسد الصغير بخرقتها البالية التي كانت بالأمس فارغة إلا من دمعتين ! : (ديللول الولد يا ابني) .

بلع العجوز ريقه دون أن يعلق وقد اغرورقت عيناه بالدمع .. دنت منه المجنونة بهدوء وقد بدا وجهها القمحي أكثر إشراقا هذه المرة .. أزاحت بهدوء اللفافة القطنية من على وجه الصغير .. ثم رفعته نحو

عينيه الجاحظتين .. فأطالت النظر قليلا إليهما وعلقت بصوت هادئ حزين : (هذا هو يورا .. وريث نبوءاتهم .. حفيدك الذي انتظرتموه.. وانتظروه طويلا) .

عانقت الشمس بوهجها السماء الغارقة في كآبة مريرة قبل أن تحمل سرب حمائمها جهة الشفق .. مُقبلة في حنان الغيم .. جبين الصغير الذي كان يتمدد بجسده الأحمر الغض في اللفافة البيضاء .. لم تكن للصغير ملامح .. لم تكن على سحنته سوى شفتان زهريتان تبتسمان في عذوبة ملائكية . تبادله المجنونة ابتسامة عذبة فأغمضت عينيها ببطء وضمته إلى صدرها بحنان .. ثم قالت بصوت هامس جميل : (الآن سنرحل معا .. أنا وأنت .. وشمس تشرين .. وحمائم المنفى.. تلك التي تحلق بعيدا هنااااك) . ثم فتحت عينيها بهدوء وجعلت تقول بعد أن أطلقت تنهيدة طويلة زفرتها في الهواء : (يورا .. طفلنا الجميل .. اليوم سنكمل اسمك) فأسبلت عيونها المتعبة من قلق حاصرها طيلة أعوام لم ينزح .

بقي العجوز متكئا ظله .. ورحلت هي جهة الشمس الاسيانة حاملة ظلها الأخير وهي تردد : (يورا .. نيوم .. لك الآن أن تتعطر برائحة الكافور وتعانق حياة الأموات الأحياء و النبلاء .. فقد صدقت نبوءة هذا الجنون) !!!!

١- أحد الأحياء الفقيره في العراق

٢- نوع من الخبز يشتهر به الريف العراقي

٣- المرأة ات تقوم بتوليد النساء في الأحياء القديمة

٤- نوع من الغناء الذى تغنيه الأمهات العراقيات اثناء تنويمهن للأطفال

٥- نوع من أنواع الزهر « طيب الرائحة»

٦ – نوع الرقص التراثي في العراق

صعودا جهة الغيم

كلما حدق بوجهه في المرآة تراءى له وجه أبيه المتعب وجبينه المهترئ الذي حفرت فيه سنون الكدح خطوط التعب .. ليفتح برزخا بين المسافة واندلاق الضوء في عتب سربلته المرايا بين وجهين .. و يسمع طرقات (طست) البن الحديدي و رائحته على أطراف عباءة أمه الشهلاء العينين اللتين ترتسم بين ضفتيهما خطوط الكحل الهندي الأسود . كيف لم يحلم بامرأة كهذه ؟ .. تحمل في قيظ الظهيرة سعف نخيل القيظ و تمشي مثقلة الخطى .. تكاد تكون حافية القدمين .. لكنها جميلة كزهرة كلما استدار قرص الشمس على جبينها القمحي .. يكاد يسمع وقع خطواتها المتسارعة عبر الحقول و بين انحدار الظلال و هي تشد يد أخته الصغيرة التي أزعجت العابرين بصراخها رغم أن عود السكر ما يزال ملتصقا بفمها الصغير .. متجهتين نحو طريق البيت . يضحك : (صغيرتي .. لو أن النخلة لم تخن طفولتك .. لكنتِ الآن سامقة مثلها) .. أحس بعدها بغمامة دامعة تجول بين جفنيه .. فاستدار إلى الوراء بسرعة ، هو لا يريد أن يكون ضعيفا أمام نفسه لكنه تذكر فجأة صوت أبيه المزمجر : (أريدك أن تكون رجلا) .. لطالما ردد هذه العبارة بينما من أراده أن يكون كذلك .. كان يرتعش خوفا كأسماله المهلهلة القذرة ويلوذ كالفأر بين أحضان أمه التي تجلس مع بقية النسوة عصرا على ردهة أحد المنازل .. تلك الردهات الطينية المخلوعة القسمات التي تحب احتضان الحكايا و نمنمات الصيف الطويل كثيف الاحتراق .. لا تعره اهتماما .. تعجن بين أناملها تمرتين

وتلقمه إياهما ، ثم تشد شعره المغبر اثر العراك مع أخيه الأكبر هامسة : (اذهب أيها الشقي مع الرجال) .. يصيح وهو يخبط رجليه على الأرض: (أريد غيرها .. أريد غيرها) تضحك بقية النسوة ثم تعلق إحداهن : (ابنك هذا لن يعتاد على مجالس الرجال أبدا .. أعطه تمرة أخرى قبل أن نستحم بالغبار) .. أمه الهادئة الملامح لم تبلغ العشرين بعد .. هادئة كزهرة كرنب تكاد تورق في صباح أيلولي دافئ .. داعبت شعره مبتسمة وهي تدفعه جانبا بينما ارتسمت بين ملامحها الموءودة الطفولة بساطة السابقين .

سيارة قديمة كانت تنقل الماشية إلى السوق كل ظهيرة بعد أن تهدأ الصلوات على قباب المآذن يوم الجمعة و التي يعشش فيها الحمام عادة .. وها هي الآن تنقل على ظهرها المفتوح صغار القرية لتنقلهم إلى المدرسة التي كانت بالأمس قشا و عريشا و كانت أعمارهم متفاوتة لكنهم يتزاحمون في نفس الصف ، أصغرهم كان هو ، و أقصرهم قامة ، و أكثرهم بكاءا ، لذلك اعتاد صاحب السيارة أن يصعده وقت الرحيل و ينزله عند العودة .. لكنه نسيه هذه المرة .. فبقي وحيدا .. بدا خائفا و الطريق إلى البيت طويل و موحش .. يغلفه شجر يابس بين الواجهتين اللتين يفصل بينهما شارع من الرمل الذي خططته عجلات السيارات المتسخة و بقايا ما خلفته ماشية الرعاة الذين يعبرون عادة عليه .. مشى خطوتين .. ثم لاحق الريح ركضا بين منعطفات الظلال .. كان جبانا و بكاءً لكنه لا يتكلم .. إنما يثرثر كثيرا و يدمن الصراخ فقط ! . يحكي لأخته بان الظلال كادت أن تحمله إلى تلال الجن المتربصين خلف الريح .. لكن

الريح أنقذته فوجد نفسه أمام العريش .. وكانت هي تستمع إليه محملقة في وجهه باندهاش .. كانت هذه الأخيرة أكثر سذاجة منه ! .

كان قد أطرق رأسه طويلا .. مسح سحنته بامتعاض ، ثم تحسس جبهته التي بدا عليها خطا غامقا و كأنه وشم قديم .. فأحس لحظتها بصيحة صوت يعرفه تماما .. كان صوت أمه المثقلة العينين : (سيرحل كبقية من رحلوا) - وكانت تعني - أبناءها الذين يلوذون إلى الموت خفافا.. تذكر أنه قد تعدى رحلة الموت يوما وأنه شم رائحة الكافور .. و أحس بوحشة الكفن .. و رطوبة الدمع على وجهه .. فخاف .. كم خاف .. لكنه شقي يكره الموت ويرهبه كثيرا ، فللعتمة وجوه مخيفة .. لذلك قالت العجوز الخرفة بلؤم : (سأعيده إلى الحياة) .. كانت هي وحدها من رأته يحرك سبابته قليلا .. لم يتعجب القوم الذين تجمهروا حوله .. فهذه القرية تعج بالأولياء !! . جاءت بقضيب حديدي هزيل و ضعته في لهب النار حتى بدا متهيجا كجمرة .. فلسعته على جبهته قليلا .. فانتفضت يده وصاحت أمه المفجوعة فرحا وهلهلت النسوة خلفها و أصبحت العجوز بعدها بصيرة للنبوءات ، فبسببه توسعت تجارتها وقد كانت تقضي ساعات طويلة في معالجة المسحورين حتى الهزيع الأخير من الليل .. لكن طيفها ما زال يطارده كلما اقترب المساء .. كم كان جبانا ......

هز رأسه و كأنه يطرد فكرة ما .. وكأنه يطرد من وطن الذاكرة غبار حقبة من الزمن الذي كان يوما أتعس من ليلة صيف .. لكنه يجئ أجمل من كل شئ .. حتى من مرآته التي يرى في تقاطيعها وجه حبيبته التي لا يحن إليها كما يحن إلى من مروا في الذاكرة كوخزه حلم .. ومضوا منهكين -

أولئك التعساء – أتراها تشبه تلك التي كان يتربص خلف النخيل ليراها من بعيد تُحدث العشب بلوعة غنائها البحري .. وتشد وترا حول قلبه ؟ .. كانت أكبر سنا منه وقد أورقت فيها الأنوثة مبكرا قبل أن تصبح أما في الرابعة عشر وزوجة لشيخ العشيرة .. و كان هو طفلا كبيرا و أحمقا.. يحب تصيد الأشياء عن بعد .. تماما كما كان يفعل في ساحة المدرسة التي تعّج بأطفال القرى القريبة و البعيدة .. محدقا في أفواههم العريضة وهم يأكلون أرغفة الخبز المغمس بعسل السدر البلدي .. فيسيل لعابه طمعا في تذوقها .. أو حتى باصطياد فتاتها المتناثر في الأرض الرطبة و التشرينية الرجفات .. التي علق فيها غبار الحقائب و (السبابيط) القذرة .. بلع ريقه بسرعة ثم رشق دعاء إلى السماء معانقا أحلامه المكتظة بالحماقات: (يا الله .. اجعل من فتات الخبز هذا نصيبا لي) لكن طيرا هزيلا مرَّ وخطف قطعة الخبز التي رمى بها ابن شيخ القرية ___ آنذاك – و الذي عُيِّنَ حارسا ليليا يوم الأحد – بالأمس تحديدا – ذاك الذي أدمن معه يوما تهاطل زخات اللعن و السباب القذر و الارتجاف خوفا تحت ضربات العصى التي يتلذذ بتمريرها معلم المدرسة الأجنبي السمين على أكفهم.. الغث الطلة و الطلعة .

مسح المرآة بطرف سبابته .. حيث كانت عيناه تحدقان هناك .. فتذكر في غبطة أنه قد حدق إلى السماء يوما .. عندما كانت عيناه جميلتين .. عندما كان يقول الجميع : (لا شئ جميل فيه سوى هاتين العينين اللتين تشبهان عيون البقر !) تذكر وهو في الثالثة حين رأى القمر جميلا ذات مساء .. حين ذهبت أمه لجمع سعف النخيل اليابس كي تصنع منه

مراوح سعفية للبيع في قيظ كثيف اللهب و الاحتراق .. و كانت قد أوثقت ساقيه في جذع العريش مخافة أن يتبعها إلى طريق الحقل فتلسعه عقربة الصيف السامة .. كان يبكي و يرفس ساقيه في الرمل كي يتخلص من عقدة الحبل المربوط عليهما .. لكنه نام أخيرا بعد أن حدق في القمر .. تاركا في الرمل دمعتين ، فأسبلت عينيه في تعب قبل أن يحتضن الليلك كبد السماء و تحاصره أطياف الجن التي يتحدثون عنها عادة بين الأسحار و تحت قناديل المساء . ما الفرق الآن بينه و بين قطة الحي التي يحبها كثيرا و يلقمها بغبائه المعتاد أعشاب الحقول ؟ .. ربما لأنه يظن بأن جميع الكائنات لا تعرف رائحة اللحم و تستلذ طعم العشب مثله ! .

في المرآة وجه يرفض الأشياء .. لكنه يتمدد في فضاءات الشعور .. يخترق حتى عبث الاختراق .. أمعن قليلا في سحنته التي تبعثر حولها شعر من لحيته التي نسي تهذيبها منذ وقت طويل والتي كان يحلقها كل أربعاء و يعطرها بماء (الكولونيا) الإنجليزية الصنع .. دقق في بضع شعيرات بيضاء كانت قد تطفلت و سط الشعيرات الغامقة السواد .. فتذكر أول شعرة أورقت في خده .. فوقف عندها مبهورا بقامته .. رأى أنه الأطول بين صحبه الذين يدمنون تسلق الأمواج و يلاحقون استدارات النوارس حول تعب الأصيل في آخر رحلة للصيد .. لكنه أطلق الحمام من أعشاشها ذات نهار وتبعها محملا الغيم حقائبه الفارغة .. و سافر إلى المدينة حيث الوجوه لم تألف التعب و لا تستفيق على شمس لا تمل خرافات النهار .. و كان يومها يلعن بملء صوته حياته القديمة التي أقسم أنه لن يعود إليها من جديد .. صعودا .. صعودا .. نـ.. حـ.. و ...!!!

اليوم وقبل أن ينتصف المساء و يعانق خريفه الأول بداية النعاس الذي بدا يجتر الفراغات حول المرايا .. جاء صوتها الفيروزي مخترقا صمت الجدار .. محموما بالتنهدات .. يهمس من شرفة بنفسجية : (وحدي وعشرون عاما .. و أنا يسكنني الحنين و الرجوع ..

كبرت في الخارج ..

بنيت أهلا آخرين ..

كالشجر استنبتهم فوقفوا أمامي) ..

رفع و جهه في المرآة التي هشمها بكفه ثم طأطأ رأسه في الأرض طويلا .. وبدا خيط هزيل من الدم يسيل في الأرضية الرخامية .. أتُراه و بعد أن بصق في تلك الأرض يوما حين اكتنزت في جبينه شمس تشرينية .. سيحن لها من جديد و يصير له ظل فيها من جديد أيضا ؟ .. بكي طويلا .. ثم التفت إلى الوراء حيث رأى جميع تلك الوجوه تطير كقبرات نهار مثقل حزين من مرآته المهشمة .. و تحط بين جنائز الوهم هناك .. مخلفة وخزة في القلب ! .. حدق في شرفته التي بعثر على طاولتها الخيزانية المتروكة بجانب تحف (الانتيكا) على الزاوية بعض من الصور و الأوراق و القصائد القديمة .... رن هاتفه الجوال مرارا ..

- ألـو ......

- نعم .. إنها أنا .. تلميذتك النجيبة .. ألن تلقي علينا المحاضرة اليوم يا دكتور ؟

(لا صوت سوى أنفاسه) ..

- الو .. ألو .. هل أنت بخير ؟ .... أجبني !

عقد حاجبيه ولم يرد .. هي لا تعلم انه قد نسي وجهه هذا الليلة .. و ترك ملامحه مهشمة في المرآة .. وقد فرت تلك الحمامة التي استقرت في رأسه ذات هجرة ، ثم تبع غيمه تشبه تلك التي صعد عليها منذ قرنين من الزمن .. وها هو يستوطن الفراغ و يمشي وحيدا و حول ظلاله المعتقة صوت فيروز يغني : (ضربتنا موجة البغض

وها أنا أستوطن الفراغ ..

سكنت في الغياب مرتين ..

شردت عن أهلي مرتين ..

وها أنا أحترف الحزن و الانتظار ....)

ثم انطفأ خلف سحابة عبرت و بعثرت ريحها أوراقه وقصائده و صوره في شارع (جرين بارك) وقد سقطت آخر ورقة كتب عليها : (He died in the last year of last century) ! .

(عقولنا سرب يمام ..

فلّ لدرب الريح ريشا ذات هجرة

لكنها ما عادت بنا .....

إنهم نحن المتعبين من الهجير !!!!)

الموت يأتي مرتين

لم يعد لتشرين طعم المطر و رائحة اللوز، كي يمتد معه الغيم السادر في الأرصفة ، إنه لعجوز تمشط الطرقات.. تشرّد ما تستطيع من الورق الأصفر وسط خرائب الأرصفة ، شاحبة اللون كانت ، تمد كفا راعشة لتبحث في غبطة عن رغيف ، وقد كان الصِبية في الحي يلاحقون أخيلة من دخان البارود الأسود ، وبين مخابئهم تتواري طفولة يجرحها حلم لأراجيح تتدلى وسط حدائق مزروعة ونخيلا . وحين كانت تناديهم أمهاتهم: (عودوا إلى البيت) كانوا يردون في شقاوة الأطفال: (لا ..سوف نبقى قليلا) .. ما باله هذا المساء ؟.. سحب من الدخان تتضارب داخل أجواء المقهى الصغير في زاوية حي قديم يتسامر فيه عادة من كان يحلم بوطن أكبر من وهم .. تتخبط الأدخنة ، وتفترش الفراغ ، وكما هو القنديل المتأرجح في السقف، كانت ومضات الضوء الخافتة تتهاوى على صوت حنجرة تتماوج مثل عزف ناي حزين و تخترق بأوتارها قلب الشاب السارح في موجة حزن : [١] أنا متعود عليك هواي) ولم يصحُ من إغفاءته المعهودة إلا بركلة كوع من أحد صحبه الذين يعرفون ما يلهب هذا القلب من حنين .. و يهتف بصوته الناشز: « كانت ثيابي العلي غربة .. ومستاحش من عيوني « فبدت بعض قهقهات خافتة .. و انكسر الناي .....بينما المسن الجالس في الزاوية وحيد .. متجهم ..كانت تمرق من بين عينيه الحزينتين غيمات دامعة. ما باله هذا المساء ؟.. هو وحده من عاش على صوت الناي الذي اخترق جدار وحشته : (أنا يا روحي غريب ..

وعيني عالماشي بسفر .. شريني كلمة، و أنا نسمة بوقت صيفْ).. فمسح بطرف إبهامه دمعة خانت وقاره و وجعه المسفوح في القلب كوخزة خنجر (لا يا روحي الدنيا ما تسوى زعل). بدا كارها لذاك الفراغ الذي راح يفتح في ذاته عن ذاته الضائعة .. فلملم ما تبقى من جرحه وبعض ما طار من ذكرياته العابرة .. وغادر بخطوات متثاقلة مستئذنا حشد السامرين بإيماءة من رأسه مثل كل مساء ، تاركا وراءه رائحة تشبه رائحة الهيل.. تماما كتلك التي داعبت نسمات خريفه وهو في قطار الليل يوما ، عندما لم تكن الأرض تغلي على الرِّق، و تلعق أرصفتها الخطيئة . وكان من بين من يدخلون ومن يخرجون في المقهى الصاخب بأصوات طاولات النرد ، و ضجيج الأراجيل ، و أكواب الشاي المزعجة ، من غاب ولم يبرح عتبته منذ مدة طويلة ، وهو من كان يهوى الثرثرات على مقاهي الشعراء و أحاديث المسنين الذين يقصون الحكايا، و يشربون الشاي بلا سكر ! .. وقد تنبأ بعض رفاقه التعساء بأنه لن يعود قبل أن تقوم القيامة ! .. غير أنه كان يطوف المكان الذي لم يكن بعيدا عن ذلك المقهى بحثا عن عين بلون النخيل لعل من... فأطلت أمامه كالفجاءة مدججة بسلاح يلتف حول خصرها الأنثوي النحيل ،كيف اختلط الورد بالشوك ؟؟؟ .. فهمس بعينيه في نشوة (لم أكن أعلم أنكِ من ستكون القصيدة في وحشة هذا الهزيع وأنك أنتِ الإجابة قبل أن تحتار بي الأسئلة .. كم كنت صغيرا قبلكِ) . حدجته بنظرة خاطفة ككل مرة تراه فيها وهي تقف كعادتها على نفس الرصيف المتآكل القسمات الذي عبثت به دهور الخوف منذ أول ميلاد جرح لتلك الأرض ، لكنها نظرة خائفة هذه المرة ، إلا أنه لم يفقه لذلك

كما هي عادة الشعراء الحمقى،ولم يعد يرى أمامه سوى غابة النخيل تلك و صباح يشرأب روائح تبغ و دخان أسود غائم كان يتطاير مائلا قلب الفضاء . وكانت بيوت الحمام فوق السطوح خالية ..لا حمام إذن.. كثير من الألـواح المبعثرة هنا وهناك وبعض ما خلفه الحمام من الريش بين الهشيم . هل يعقل أن تكون هي حقا سطر قصيدة يبحث عن خاتمة كما كان يظن ذلك الأخير؟؟ . وكانت كلما أطلت وقف في ركنه البعيد بثيابه البالية و أكداس أوراقه التي لا تغادر يديه.. يجاذبه حلم طفولي قلق ، فرغم قساوة ملامحه ذات الخطوط المتعرجة التي توحي عليه بتقدم العمر ، إلا أنه كان بريئا — حدًّ- السذاجة ، ما كان يريد أن يروي سوى وردة قلبه الأنقى من وردة محمدية في جسر النهر المجروح بتعاويذ الرُحَّل، وبكاء العاشقات ، و بالياسمين المنذور لضفتيه صيفاً . وحين كان الليل شتاء ، عانق نخلات أبيه الثلاث ، وقبَّل أمه منحنيا على رأسها .. أمه التي كانت خرساء إلا من بسمة مجروحة تهمس (طار الكثير من عمرك يا بني) فابتسم هامسا في حنان الغيم (ها قد حان الوقت لأرجع ، لم تشخ بعد أشرعتي ، سأعود وفي يدي خاتمة لقصيدتي الأخيرة ، و امرأة لطالما حلمتُ بها .. ادعي لي يا أمي). فراح يطوف مكانه المعتاد إلى حيث كانت تقف صادية الروح ،معطرا ثيابه بعود عربي تحبه أمه ، صبيا كما كان قبل سنين ، و كأن تلك الندوب الكثيرة التي حفرت ملامحه قد غادرت تضاريس وجهه القمحي الذي ما كان ينم عن وسامة أؤلئك الواقفين أمامها . أراد الاقتراب منها قليلا ، كي يوقظ الليل ويفتح نافذة في السماء.. تراجعت هي للوراء خطوة، وبنظرة قلقة راحت تحدق في المحرمة البيضاء التي

كانت بين يديه ، أراد أن يضم طيفها كي يمتزج المسك المعطر في ثيابه مع رائحة ثيابها الخضراء التي بللها مطر تشرين منذ أن زارت أزقة أهله من أجل أن يرتوي أهلها العمالقة بحزن الذين ..... كيف لم يفقه لذلك ؟ ..لم يعد البياض سلاما.. ما كاد الصبي النائم في داخله يصحو في ألق و يناولها ما خبأته المحرمة حتى تعالت في المكان صرخة مزلزلة تردد رجعها: terrorist)).. - يا إلهي - إنها الكلمة التي يرددها أؤلئك كلما بادروا بالتحية ! .... ما كاد ينطق : آه يا حبيبة : (٢) (هل أنتِ من هامت بها أندلس وخجلت من سحرها بابل؟) حتى دوت طلقات نار مزلزلة وصوت من بعيد يهتف : (احترس).. لكن المحرمة تعثرت ، وعتقتها الريح بلا وجهة هنا وهناك . لم يكن في داخلها سوى عقد فل انفلت بياضه في المكان.. لم يكن العقد يحمل رائحة لبارود سلاح، أو قنبلة موقوتة!! انه لقصيدة حمقاء مربوطة في لفافة، ها قد نام هذا الأخير بلا حلم حيث نام هناك يتامى الصباحات ، وعاد إلى طين قريته برائحة الكافور وخلف جثمانه صف يهتف (الله أكبر) ، إنهم لا يدركون بأنه لم يكن شهيد للأرض بل كان شهيدا (للحب و الإخلاص)! . وكانت أمه ــــ السنديانة الخرساء ــــ تقف إلى جانب قبره و تهمس من بين غيماتها الدامعة (٣) غافلتكَ الغيوم ..ها هو المطر.. دمٌ ، دموعٌ ، غناءٌ، فكيف تركت أرضك دون انتماء؟) وغادرت تجرّ عباءتها السوداء نحو شمس تلوذ إلى الغيم ، تاركة خيطا هزيلا يضيء نزف قبور كان في صمتها خجل، وبعض أنين خافت!. لم تكن سنديانة الجرح تلك وحدها من بكى .. فحبيبته القديمة التي أحبته ــــ حدَّ ــــ الجنون يوما ، و التي غابت طويلا ذات هزيع ضَّج

بالرصاص ، و أخفى عذاراه خلف البيارق، كانت تمشط بخطواتها المثقلة تعب الأمكنة.. أين كانت تراها منذ قرن من الحزن؟ ولماذا تخبئ وجهها الغجري الجميل في هدأة هزيع معتم كهذا؟..لا يعرفها سوى القمر الذي شاطر البائسين الحيارى أسرارهم .. و الذين ظلوا حيارى تائهين . وقفت في البعيد على زاوية بئر منزل مهشم القسمات هجره أحبته وراحت تشير إلى البعيد ، المكان الذي تعرفه و تحدجه ببصرها في بلاهة ..تعتق ما تبقى فيه من حنين ، هو منزل والدها ، و إخوتها الصغار الذين شاطروها فيه خبز الصباح ، والشاي الأحمر السكري!! ، ولكنهم ذات ليل زرعوا الزنابق في قبرها حيث كانت تنام أشباح الأسيرات الخالية من أجسادهن إلا من طيوف ، و طين ، وبعض حنين ، و أسئلة خاوية ..كيف ترجع هذي الأخيرة إذن ؟ ليس ثمة حبيب كانت قد أحبته .. لقد فضل الاغتراب إلى حيث كان الموت حليف حماقاته .. كيف تحول سر الذي قد مضى إلى غد لا انتماء له ؟ .. كيف تقبل هذه الأخيرة كما كانت جبين أبيها المهترئ ..كيف ترجع وما بين راحتيها تنام الخطيئة ؟؟ . ستبقى أسيرة هذا الغياب إلى أن تقوم القيامة. ولكنها قررت أن تفتتح هذا النهار وتوَّسِع منفى الحقيقة، وتمُرّ بين نعاسهم المكتظ بالخواء.

عبرتْ في إحدى الليالي كطيف شبح أمام مقهى أؤلئك السامرين ، همست في نفسها الجريحة : سأمشي دون قلق ،الأرض تعرفني ، و الأرصفة جميعها للضائعين .. كلنا دخان هذي الأرض) . تأملتها الأعين بدهشة .. كأن النهار قد قال ما كان يجب أن يقول لسماره .. و لتمادي حكاياتهم في المساء المجلجل بالقناديل و الاحجيات التي تُصاغ كلما أفضى الفراغ سرا

.. بينما شخصت عيناه هو.. ___السارح___ في موجة حزن كما هي عادته ..أحس بغبطة و امتقعت سحنته، راح يحدق في وجهها المليء بالندوب وعلى جانب من خدها الذي كان توتي اللون قبل عام ، فربَّتَ أحد صحبه على كتفه مواسيا: (استيقظ يا صاحْ).. تحركت شفتاه في رجفة وهو يقف في دهشة موقعا (إرجيلته) على الأرض الصدئة ..يتمتم: (إنها) .... ثم عاد صاحبه إلى مقعده غير آبه .. سحب الأخير إرجيلته المتروكة على طرف المقعد الخشبي ، و عاتب في سخرية (لا شئ تكترث الآن به) وإذا بالعجوز الذي كان.. يقف من جديد ، لكنه هذه المرة ترك الباب يصدغ خلفه . انطفأ في البعيد مثل نهر يعرج إلى السماء .. بينما ظلت الوجوه غائبة في الدهشة التي اعترتها ..لكن صاحب المقهى غليظ الجسد، راح يصفق فجأة بكفيه وهو يزيح الرؤوس الملتصقة بذات الدهشة ثاقبا جدار الصمت ، وراح يصيح بهم بصوته الناشز الذي يصم الآذان : هيا أيها الحالمون السذَّج.. لا وقت لسيناريو آخر .. فليبق من يبقى و ليرحل الباقون إلى سابع جحيم .... وظلَّ الناي يعزف من جديد: (أنا يا روحي جرف عطشان من ماي النهر.. مُرني طيفْ.. شريني كلمة.. وأنا نسمة بوقت صيفْ) ....!!!!!

---

(١) من أغنية للفنان العراقي ياس خضر
(٢) مقطع من قصيدة الشاعر عادل معيزي
(٣) مقطع من قصيدة للشاعر محمد هشام

من الذي كسر الآنية ؟

صالة مليئة من كل الجهات بالرفوف وتحف(الأنتيكا) وكأن تماثيلها مرصوصة في قاعة معبد روماني قديم ، شتلات متدلية من السقف بدت كروضة خضراء من وحي جنائن (بابل) المعلقة، لكنه–الرجل– وسط كل هذا الصخب من الألوان يتمدد مستلقيا في احدى الاريكات الأوروبية حيث ائتلفت الحضارات وتصادمت ،هكذا تجد صاحبة هذا المتحف المنزلي نفسها، فهي ترى دائما الألوان أقواسا ملونة ، و وجوه لزبائن يعانون من قلق ما، إنها ترى الصخب في كل شي صورة (نابليون) تقابلها تحفة (لنفرتيتي) ،(نفرتيتي)،أو(كليوباترا)، ليس مهما ،المهم (أبو الهول) الجالس في الأريكة يطارد بنظراته الهادئة تحركات الأسماك في الحوض الزجاجي الشفاف، يكاد لا يسمع شيئا، فرغم تضاريس الزوايا لا يسمع سوى نقر أظافره على الطرف الخشبي من الأريكة.. بدت نظراته قلقة ، بلع ريقه بهدوء وكأنه بانتظار قلق آخر..ألقى بنظرة خاطفة على الهاتف الخشبي الشكل أمام (فازة) تتدلى منها أعمدة طويلة من زهر(الخزامى) البنفسجية. إنها العاشرة ،الموعد مع (السندريلا)،ما كاد الهاتف يرن كعادته حتى حمل ظهره على أهبة من الكرسي تاركا وراءه الموانئ و القارات، وهبّ مندفعا نحوه بعد أن سبقت أصابعه رنة الهاتف التي ما كادت تدغدغ أسلاكه الشائكة

– ألـو..

لا صوتَ سوى أنفاس تتلاحق بهدوء ..

- أيتها الرائـعة ـ في كل شيء ..

تضحك فـي خجل....

- إذن أنا جميلة..

- جميلة حـدّ التبخـر..

- و هل تتخيلني كذلك؟..إذن...

- إذن.. ماذا؟...ماذا يحدثك خيالِك ؟؟

- أنـكَ..

- أني مـاذا؟..

- أنكَ شـاعرٌ ..

- أنا كذلك..

- إذن أنت مخادع !!..

تتكتك الساعة ثم تتخللها دقات برج (بج باند).. تضحكُ بعذوبة هامسة:

- أسـمِعني الآن إذن قـصيدة إنجليزية ! ..

يبتسم ابتسامة عريضة ، يشوح بنظرة طويلة تجاه الساعة المتدلية في الأعلى بدت الساعة جميلة وخلفها ورق الحائط ذات الألـوان القـزحية.ما كادت تتحـرك شفتيه ليقـول الكلمة الوحيـدة التي يعـرفها ((I love you حتى سبقته نغمة الخط وهي تجلجل في أذنيه تيت تييت تيت أغلقت الخط من جديد يالها من (سندريلا) ـــ المرأة الخيالـــ وضع السماعة ثم أخذ نفسا عميقا وزفرة في الهواء بهدوء .

صوت المفتاح يقارع الباب ،وصوت لفافة الأكياس البلاستيكية كما هي العادة في كل نهار. تدخل ومن بين أسنانها يتدلى مفتاح سيارتها (المازدا) تلك التي ربحتها في مسابقة للأطفال (الخُدَّج) منذ سبع سنوات وهي تتميز بقرقعات غريبة. وقف مستقيما أمامها وقال بصوت هازئ :

- يالها من (أوركسترا) يومية كم تتقاضي من وراءها !؟.

- الكثير

يضحك بسخرية.. تبتسم وتصعد السلم بخطوات طفولية ثم تلتفت إليه من جديد قائلة :

- الخبز الفرنسي الذي تحبه ..

يرد بسرعة : و(المازدا) القديمة التي أحب صوتها وأنا أتناول العشاء في كل مساء .

أعادت أدراجها ووقفت قبالته، دققت في وجهه بهدوء، وبنظرتها الهادئة يبادلها نظرة ساخرة : - مرضاكِ كثر!

- لكنني أحبهم جميعا

- حتى المجانين ؟؟

- كلنا عرائس.. لكننا لا نؤمن بالغفران مثلهم!

ثم تصعد السلم من جديد، تلتفت إليه مبتسمة..

- إنني أعرف وطنا لا تعرفه !!

أتراها تقصد الوفاء؟ إنه رجل متوجس، مضطرب ،يالها من طبيبة تجيد التعامل مع جميع الأشياء..الظلمة والنور معا..لذا هي تجمع

المواني‌ء و القارات معا في هذا المنزل ـــ ربما ـــ كي لا تغتالها رمضاء الحقائق ، وتعرجات الطرق الملتوية .

- هاهو الأمير يبحث عن صاحبة حذاء البلور والمطر يبلل رصيف الحديقة المسفلتة بالبلاط القاني اللون و المليئة(بشتلات) لا توجد إلا في أرض (السند) و ضفاف (الأندلس) فيما يحدق في الخارج يا ترى؟. الهاتف من جديد ..

- لا بد أنكِ وحيدة مثلي الآن؟..
- لكن تفصلنا مسافة واحدة..
- واحدة ؟!
- امـرأة ..

غرقا معا في صمت طويل..تنهدت..همست

- الصمت يـعني لي الكثير..
- مـاذا تـعنين ؟!
- انـظر إلى وجـهك فـي المـرآة ..
- لا أرى غـير ملامح بائسـة..
- أنت رجل حـزين !!
- معهم جيعا..إلا أنـت !
- تُحبني إذن..
- حـدَّ الجـنونْ ..
- الجنون ؟! ..أنا لا أحبُّ المجانين ..

همس بحنان كبير:

- أنا أعقل مـجنون..

ضحكت: - ابـحث عـن نكتة أخــرى ..

بهدوء تغلق خط الهاتف، تيت تتيتـ..لا زالت السماعة في أذنه همس بهدوء (لن أؤمــن بالهزيمة) !

فجأة .. (أنت تعاني من انفصام واضح في شـخصيتك) ..

يرتبك ويغلق الخط بسرعة.. تلعثم ثم زمجر في وجهها بشراسة ..

- مـنذ متى وأنتِ هنا ؟؟

- منذ اعترافك بأول نـصر..

عاتبها غاضبا من بين أسنانه..

- تـراقبينني ؟؟؟

نظراتها الهادئة أوحت له بأنها قد دخلت للتو.. يعرفها تماما، حاول إخفاء ارتباكه وسط قناعه المهلك ، ابتسمت بعذوبة زادت ملامحها الطفولية رونقا، خلعت نظارتها التي كانت تخفي لون عينيها الشهلاوان وجعلت تقول:___

- عدت من العيادة.. وها أنا أتجدد كزنبقة

حدجها بنظرة فيها استغراب، فواصلت كلامها مبتسمة وهي تتجه نحو سفينة الزينة الكبيرة في الزاوية وتداعب شراعها بطرف سبابتها

- حتى لا نتوه علينا أن نصعد السفينة معا ..

اتسعت دائرة الصمت ، لقد خشي حتى الموت أن تركله الموانئ ويتوه وحيدا هذه المرة وسط موج من الغموض ،الغموض في كل شيء .

- بسط الليل عباءته السوداء ، رقعة من الضوء سدلها القمر معانقا أسقف المنازل ،إلا من شرفة بنفسجية تراقص ظلا على ضوء شمعة ما..الليل والسحر، و، وخجل الورد، الوقت الذي تنسى العيون فيه صخب النهار ووجوه المارة ، وبكاء الـ... المرضى في عيادة (سيدة المتحف) إنها الآن سيدة المساء الأجمل من قمر يتلو صلاة لنيسان ليلا.. إنها الحقيقة بلا (رتوش) .

- أنت جميلة هذا المساء..

- وماذا عن باقي المساءات ؟؟

- ....

- لا أعلم لماذا يمقت الناس النهار، هل تعرف لماذا يحب الشعراء المساء ؟

- ربما لهدوئه ؟

- نظرية خاطئة..المســاء مليءٌ بالكائناتِ..

- لكنها خفية..

- تقصد لا مرئية ، بيد أنها تسمع.. تسمع كل أكاذيب الـرواة !

- كفي عن ممارسة دوركِ المهني النهاري الغامض معي ..العيادة الآن مغلقة

رن الهاتف.. رن...رنتان..مدت يدها لتتناول السماعة لكنه جذبها بهدوء، وأغلق السماعة، الهاتف يرن يرن، يرن ،لا مجيب.. ما أكذب المساء!!

- بقي مستلقيا في (الأريكة) القريبة من طاولة السفرة الزجاجية التي تحيطها مقاعد مخملية ،البيت يوحي بوحشة ما، (الثريات) المتدلية من السقف أضافت لونا آخر مسح عتمة الصالة رغم أنف ظهيرة القيظ التي حجبتها ستائر المخمل الكثيفة فأبقت الرخام (الإيراني) باردا رغم انثيال النور من شق الستائر ، كان يشعر بوخزه من البرد في أطراف أصابعه ، وكي يخفي قلقه كان يحاول متابعة نشرة الأخبار التي ما كانت تثير اهتمامه يوما. لماذا اختفى صوتها فجأة ؟. ظل يتأهب لصوت الهاتف، غيَّر موضعه فجأة ، وراح يمشي بخطوات قلقة يمينا وشمالا ، لكي يفسح لانتظاراته بقايا لأمل ضائع مهلك ، وحين مر النهار ولم تتصل سيدة أحلامه ، توجس و انتابته حالة من الغيظ، وكانت هي الأقرب ليفيض فيها بغيظه . دخلت حاملة (البالطو) الأبيض بين يديها، ومفتاح (المازدا) القديمة يتدلى من بين سبابتها.. بدى وجهها مكدودا من التعب طوال النهار ، جذبها بقسوة من يدها وقـال : -

- لماذا تقضين معظم النهار في تلك العيادة القـذرة ؟!

أزاحت يده بهدوء من على معصمها الذي أوجعته قبضته وقالت غير آبهة :

- إنها الثانية و النصف..
- وبعد ؟
- ألا تـجد بأن عتابك سخيف ولا مبرر له؟..أنت من جعلتها قيلولة لك .

صاح في وجهها مستنكرا..

- لا مبرر له ؟ ، يا الهي..تقول لا مبرر له !!!
- الظهيرة دائما ملك لك.. وباقي الوقت لنا هل نسيت؟
- الظهيرة ؟ يال اللعنة..هل أبدو لك خادمة المنزل ؟
- هدأ من روعك..لا داعي لهذه (الهستيريا).. لو أنك فقط استقطعت هذا الجزء من وقتك في البحث عن عمل لما شعرت بكل هذا الغيظ
- تعايرينني؟؟
- الملل يؤدي لاضطراب مفاجئ ..خصوصا إذا تبدد حلم ما ،أو لحظة ما .

سكت و أخذ نفسا عميقا ليهدأ من روعه ،أغمض عينيه بهدوء وقال بعد أن سبقته نظرته البليدة

- لماذا عدت مبكرة ؟!
- أنتَ تناقض نفسك من جديد ، ما بكَ يا رجل ؟!

رمقها ثانية بنظرة فيها بعض ما تبقى من الغيظ ، بادلته نظرة خاطفة بها حزن شفيف واتجهت نحو المطبخ ، متداركة حرج الموقف .

قالت : - سأحضر لنا بعض السبانخ ، يقال بأنها مفيدة لمن يعانون من نقص حاد في الحديد .

أطلت ثانية برأسها من باب المطبخ

- (ما رأيك أيضا بأكباد الدجاج)؟؟ ــــ هذه السيدة تتقن معالجة الأشياء ــــ

- ذات نهار... أعشوشب بعض ما ضاع من عذق انتظار طويل قطع من دعة حلم كان ، وأمام سماعة الهاتف تخلل صوتها: -

- كيف حالك ؟
- لماذا اختفيتِ أيتها الحبيبة ؟ وها أنت تخرجين من بين غيابك
- (الغياب سمة الآلهة) اشتقتَ لي ؟؟
- كنت على مشارف الجنون ..
- أنت لست محباً فحسب..أنت عاشق حتى الثمالة.
- لانك أول سيدة اقتحمت أسوار قلبي ، أنت أول الغيم.. و آخر الغيم وو

قاطعته بسرعة...

- و أول فصل من فصول الشتاء.. ولكن ثمة خريف آت..

الصمت من جديد..خريف ؟؟ . إذن ورق أصفر...بادرت قائلة :

- هل يوحي لك الخريف بشيء ؟ بالنسبة لي الخريف يعني سقوط الأشياء
- لكنكِ ربيعٌ يتجددٌ..
- أمتأكد أنت ؟.. قلها إذن
- أحبكِ

التقطت أذناه بعض أنفاسٍ ترتعش ، ربما خوفاً، ربما توجسا..لا بد أن قلبها يخفق الآن بقوة (هكذا همس في نفسه) فتابع نصره قائلا : - تُحبينني ؟

صمتت قليلا ، فقالت بعد أن بلعت ريقها بهدوء: - (سأجيبك حين

أراك ، فقد لا أعجبك

- (الأذن تعشق قبل العين أحيانا) ، ألست معي؟

- لكنني لست جميلة ، هكذا أرى حقيقة نفسي!

تبددت ملامح النصر في وجهه، لكنه تابع حواره قائلا : وهل تتصورينني رجلا وسيما ؟ أيشغلك هذا الأمر؟

- لا..

- و إذا كنت كذلك ؟

- سأحبك لذاتك ..

- غلبتني

- لماذا اختارت الثانية عشرة تحديدا لكي تراه فيها ؟ ، ربما كي تكتمل رواية (السندريلا) ويصبح هو أمير الحكاية ، (استهلكنا الوقت طويلا) هذا ما تبادر في ذهنه. وقف أمام المرآة يتفحص شكله لآخر مرة خشية أن يكون أرق البارحة باديا عليه مع أنها لا تزال الثامنة صباحا.لا هي لن ترفضه ..كيف ذلك وهو من قال لها بأنها البحر الذي تبسمل غروب أمواجه النوارس.. وأنها السماء التي لا تغادرها النجوم .. وأن لغيابها بكاء جميل !! .

- أين أنتِ ؟

- لكي نفصل المسافة.. ستجدني في آخر نقطة..عند آخر مفترق من الطريق

- تخيفينني

تضحك : – هل أبدو لك فزاعة حقل ؟!. بادرها مطمئنا :– له أن يكون منفاي الأوحد !

- سيكون لنا وطن واحد..
- وأعدكِ بأنني لن أفتش عن هوِّية..أنت لي وحدي..الوطن و الحبيبة
- الثانية عـشرة ....

تنحنح وهو يعدل من ياقة قميصه (الرمادي) ويفتش عن ملامحه في المرآة، عله نسي شعرة ما وهو يهذب من لحيته ، لكن اللوحة بدت مكتملة ، أطال النظر قليلا إلى وجهه ، أحس بشعور ما سرى كقشعريرة تعبر بغتة في جسده (كأنني أراني لاول مرة) – قال في نفسه – ثم همس من جديد : (منذ متى لم أراني هكذا ؟) شعر بأنه يفرغ ذاكرته المتعبة وينفض غبار عامان مرا . (ماذا تبقى منها غير الصورة السوداء فوق المكتبة)؟ وقد كان يقصدها– امرأته– ثم جعل يكمل : الجميلة التي عبرت كفرق (أيار)،عبرت ، ربما لن تعبر مرة أخرى..(فأيار) لا يأتي في كل عام ليلد نجمة (لماذا تأتين الآن)؟ كان يعيش عراك لحظة مرة ، وحين شعر بأن خفقان قلبه يزيد من ربكته ، أمسك بقبضته القوية يد (البيانو) الذي كان في المنتصف ،فترددت أصوات نغماته بعد أن تضاربت محدثة أوتارا ناشزة تردد صوتها بين الأجواء التي كان يشوبها هدوء بارد، ارتعشت طيور (الحسّونْ) بعد أن انفلتت من قفصها (الكاكي) وتناثر بعض ريشها على الرخام.. ربما لوقع خوفها من الصوت الذي اجتاح سكون الأشياء و الأمكنة

محدثا هذا الانسياب المريع من الرجع ، وكانت عقارب الساعة تأخذ في دورانها الفراشي قلق اللهفة القادمة، عادت الأشياء إلى سكونها، وظل هو صامتا، مطأطأ الرأس ، إلى أن شعر بالدقائق تمر مسرعة وهي تلاحق دقات قلبه.. أي صراع يعيشه هذا الأخير؟ .لم يكن هكذا حين كان يلاحق ترقبه هذا الصباح ، ويعيد صياغة الكلمات لينحتها قصيدة (لأهداب حبيبته).. بدى الوجوم واضحا في وجهه ، وبدى ممتعضا من اللحظة القادمة ،أخذ بعضه ، واتجه نحو الباب ساحبا معطفه الشتوي في يوم قيظ كثيف الاحتراق !!!!! .

- مضت الدقائق مسكونة بالترقب ، ألقى بنظرة قلقة خاطفة على ساعة معصمه السوداء التي أهدته إياها (سيدة المتحف) في يوم ميلاده الثلاثين الشارع هادئ ، دبيب حذاء مزعج لعجوز سمينة قادمة تحمل مظلة بيضاء واقية لكي تبحث ربما عن ظل يستر وجهها من لهيب القيظ ، مرت بخطواتها المتسارعة متجاوزة الرصيف الأحمر..ألقى بنظرة بليدة خلفه متابعا ركض العجوز القلقة ، ياله من أحمق ، ظن بأن سيدة أحلامه قد تمر بأي وجه كي تراه ، قادمة بفضولها وعلامات استفهامها الخاوية علها ستقنع به، لكن الشعور بالنقص سمة لم يتجاوزها بعد ، تذكر في غبطة (سيدة المتحف) التي حاولت إقناعه مرارا بأنه في حاجة للعلاج ، لطالما قالت له (أنت كامل ، فابحث عن ذاتك) هز رأسه وكأنه يطرد تلك الفكرة ،المشاعر اختلطت عليه فجأة .. عابرة كوخزه موجعة (أتراني تخطيت سمة الشعور بالنقص في داخلي وكانت هي ــــ

أعني ـــــهنّ.. هل أحبها تلك التي حاورت ذاتي؟. وهي؟.من هي؟ الساكنة في القلب كسنديانة لا تتزحزح ، وجهها ، غموضها، لونها البرونزي ، عيناها الشهلاوان.. البسيطة الجميلة،الحالمة، (كليوباترا)..(سالومي)..(تماضر الخنساء) ابتسم قلبه وواصل تنقلاته: (مادونا)..أو ربما (مارلين مونرو) من يعلم ؟؟!!

- الطريق لا يزال طويل ، لماذا اختار أن يمشي حتى آخر مفترق من الطريق دون أن يقطع المسافة شوقا بسيارته الفارهة؟ ربما لكي يطيل هذا الصراع المتأجج في كوامنه الضائعة ، ويرسو على جزيرة من الرؤية يقف فيها مودعا ذاته الضائعة تلك . بدت خطواته تثقل شيئا فشيئا حين اقترب من المكان وأمعن ظلها المسدل الطويل وراء شجرة (النارنج) لا أحد سواه وظلها ،اقترب خطوة أخرى.. بلع ريقه في توجس بدى واضحا في وجهه، وجبينه الذي كان ينضح عرقا..كان قد حرك شفتيه ليقول شيئا ما لكنه تراجع فجأة عائدا إلى صمته ، وكانت شجرة النارنج هي الفاصل بينهما ،تساءل في قرارة نفسه" لماذا لم تبادر هي وتلتفت إليه؟؟" ، كلاهما خائف ، بقي ظله معانقا ظلها المسدل . قرر في كبرياء مصطنع أن يقترب خطوة أخرى إلى الأمام ، لكنها بقيت واجمة وكأنها لم تكترث . فجأة ارتعش ظلها و أطلت برأسها قليلا ، فتح فاهه مندهشا.. لقد كانت ترتدي (مريولا) مدرسيا وتعقد شعرها الكستنائي في ظفيرة مربوطة بشريط حريري أزرق اللون ، بدى وجهها الطفولي خائفا (أي نصر هذا)؟! .ذاك ما تبادر في ذهنه لحظتها بعد أن شعر

بالخذلان و الانكسار، لكنها أصغر من تلك الكلمات، كادت شفتاه أن تتحركا ليقول شيئا لكنه قرر الانسحاب . وبهمس ناعم بادرت وقد كانت تحمل بين أناملها رسالة ووردة حمراء (هكذا كما يفعل جميع المراهقين) (لماذا لم تأتي بسيارتك) ،ثم أكملت في بلاهة : (أخشى أن يرانا أخي فيوسعنا ضربا)! تدارك سخافة الموقف وأعاد أدراجه ساحبا ظله دون أن يعلق ، فلم يعد الفضاء يتسع لظل آخر، للأخيلة العابرة.. للهمس المعقود بالفل..للممر الذي سيزهر وردا وقصيدة. وفي رتابة صراعه اخترق صمته المشحون بالحزن رنات هاتفه الجوال ،عقد حاجبيه في دهشة،إنها هي.. وبصوت يائس فيه كثير من الحزن و المرارة قال لها: - (لماذا كذبتِ علي)؟

- آسفة
- آسفة ؟!
- كنتُ أحاول أن أبحث عن كلمة لبدأ الحكاية .. أبطالها نحن
- لا أفهم
- لم أقرر بعد الوقوف عند آخر مفترق من الطريق.. سأكون في أوله ،هل لديك الوقت الكافي لتأتي ؟
- ألستِ أنت ؟ أعني تلك التي كانت خلف.....

شعر لحظتها بأنه موزع بين حكايتين ، يتعثر بالخيبات حينا ، و بالدهشات حينا أخرى ، أتراه خائف من سقوط قادم ؟ أخذ نفسا عميقا زفره في الهواء ، ثم جعل يقول بعد رحلة من التعب مستسلما: (هل يكفي اليوم أن توقفي هذه الحيرة في نفسي لكي يرتاح قلبي ،

ونفك معا هذا الغموض المريع) ؟

- (وهل ستعدني بأنك لن تمضي.. لن ترحل.. قلت بأنه ليس لك زمن غيري

- أنت أنثاي

- وهي ؟ امرأتك

- لقد جف النهر ، هي وطن تبدد..لم يعد لخرائطها مكان ولجزرها رؤية ..لم يعد لشواطئها موانئ.. ولجسورها أنهار وحمائم !!

- إذن لا داع لان أخاف بعد الآن .. ستأتي ؟

- وسأظل أذكر هذا المكان ، سأهبك كل الجهات ،حنان الريح.. ورائحة الورد.. وحنّو النارنج.. وهدئة الدهشة الأولى.. فأنا صادق حد الندى .. أغادر غفوتي وأجدك أنت..أنتِ فقط.. تتسربين غمامة جهة القلب ، سبحان الله لصوتك وقع جميل و كأنني أعرفكِ تماما .

ردت : – ما أثقل جراحك أيها الرجل.. سأرتاح الآن وسأنام مطمئنة عليك،فقد أسرجت خيلك أخيرا ، ورست سفنك، ولم تعد بحاجة لامكنة أو لسيدة كسرت أواني الورد ، أو لتلك المنافي الفراشية الدوران. لن تقف حائرا بين قرطبة ونجد..أو بين روما وقشتالة ، أو دمشق والصين، فقد انتهت حصة الجغرافيا

- جغرافيا ؟

- جغرافيا الهبوط إلى واقع الأشياء .. السماء و التضاريس امتداد للاشيء .

ضحكت ثم أكملت كلامها بعد دقيقة من الصمت : (نظننا دائما قادرين على قراءة الوجوه الحزينة) ، سعيدة لأجلي.. سأبكي الليلة كثيرا لأنني سأودعني)!!!! كان الوقت قد انفلت منذ أن خرج من البيت ، وحط الغروب ظلاله على الشارع المسفلت ليعانق رسم الأشجار المزروعة على جانبي الرصيف ، وقد كان الشارع خاليا من المشاة ، همس في قلق : (أعرف هذا الصوت) ، التفت إلى الوراء بسرعة .. فاتسعت عيناه في دهشة حين رآها خلفه واضعة كلتا يديها داخل جيبي (البالطو) الأبيض و كأنها في عيادتها النهارية تماما، فارتعشت شفتاه وتمتم في انفعال خائب : (أنت إذن من ..) بدت شبه ابتسامة مفتعلة تعبر شفتيها بها حزن طفولي شفيف فقاطعته : (لا عليك) . لكنه بقي واقفا دون أن يعلق ، أو ربما بانتظار دهشة خائبة أخرى ، اقتربت منه قليلا و انحنت إلى الأرض لتأخذ هاتفه الجوال الذي تناثرت بعض أجزاءه في الإسفلت ،واقتربت منه قليلا ثم جعلت تقول بصوت هادئ حزين : - أعلم تماما ما تعنيه هذه اللحظة لكلينا - وبعد لحظة من الصمت .. بدت بعض غيمات دامعة تعبر بين عينيه في حزن موجع مرير : (أهكذا تعالجين الأمور) ؟ همست له في حنان و هي تضغط على كفه : (الآن فقط أدركت أنك لا تحب مدائني ، لكنني أحب البقاء في وطنك.. يكفي أن أكون أناهي، وأن تكون هي أنا ، وأن أكون أنا الحقيقة والحكاية معا.أظنني كنت المدينة و المُراد مني أن أكون الزائرة ،ألن ترحل معها الآن ؟) مدت يدها إليه وقالت مبتسمة : (ارحل معها إذن ودعني هنا) !! .

الفهرس

قصائد ٣

الطفل ذاك ٥

متى يعشب الطين بالذكريات ؟ ٧

لو تعود الحمائم للجسر ٩

ثمة غيم يخون ١٢

ترجل ١٣

حفروك في لغة المواسم ١٦

قربان الخطيئة ١٧

ما الذي يورق الآن ؟ ١٨

وردات في هطول الحنين ٢١

لا أرسمها سوى نرجسة ٢٤

عقدت فيك تمائمي ٢٦

همسة للظل ٢٨

طريقان للماء ٢٩

قصص ٣١

آخر العصافير رحيلا ٣٣

يورا ٤٤

صعودا جهة الغيم ٥٢

الموت يأتي مرتين ٥٩

من الذي كسر الآنية ؟ ٦٥

رقــم الإيـــداع
١٥٧/ ٢٠٠٧م

التصميم والإخراج
المستنير لخدمات التصميم والطباعة . هاتف : ٩٢٩٢٨٩١٠ (٠٠٩٦٨)



يأتي إصدار هذا الكتاب ضمن مشروع وزارة التراث والثقافة بنشر ابداعات الكُتاب العمانيين في سلسلة إصدارات متتابعة .